المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

دون ناردو

الأساطير المصرية

ترجمة: أحمد السرساوى

مراجعة وتعليق: علاء الدين شاهين



1848



من أهم ما نلحظه في هذا الكتاب هو براعة المصرى القديم فى تناول الأعمال الأدبية، مثلما برع فى المجالات الأخرى من فلك وطب وعمارة وهندسة وزراعة وملاحة. ويتبين لنا كيف كان المصري القديم أديباً ومفكراً وكيف جعل من نفسه مراقباً أميناً لهذا الكون.

لذلك فإن خصائص الأدب الفرعوني والمدارس الأدبية المختلفة، والتي تحدث عنها الكاتب في تقديمه إحدى الأساطير، تحوي ثروة هائلة من العناصر الفنية مما يجعلنا أكثر إلحاحاً على النقاد المعاصرين لأن يغوصوا في أغوار هذا العالم البديع.

كما عرض أساطير الفراعنة بأسلوب مبسط وميسر تدلف منه إلى حياة المصرى القديم بسهولة ويسر، فتمس خلال رحلة قراءتك لهذا الكتاب فكرَ المصرى القديم ووجدانه، وكأنك عايشته وأنت فى القرن الحادى والعشرين.

تصميم الغلاف: إيناس الهندى

الأساطير المصرية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 1848
- الأساطير المصرية
- دون ناردو
- أحمد السرساوى
- علاء شاهين
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:
Egyptian Mythology
By: Don Nardo

Published by Enslow Publishers Inc.: Berkeley Heights, NJ, USA

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

الأساطير المصرية

تـــأليـــف : دون ناردو

ترجـمــــة : أحـمـــد السرساوى

مراجعة وتعليق : علاء الدين شاهين

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ناردو ، دون .
الأساطير المصرية / تأليف: دون ناردو ؛ ترجمة : أحمد السرساوى ،
مراجعة وتعليق : علاء الدين شاهين
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١
١٦٤ ص ، ٢٤ سم
١ - الأساطير
(أ) السرساوى ، أحمد (مترجم)
(ب) شاهين ، علاء الدين (مراجع ومعلق)
(جـ) العنوان ٢٩٨.٢

رقم الإيداع ٢٠١١/٢٦٣٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 441 - 7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم

اختلف كثير من العلماء والمفكرين حول دراسة التاريخ الإنسانى ومدى فائدته، وبخاصة – تاريخ العصور القديمة أو الحضارات الأول، ولكنهم اتفقوا فى اندهاشهم وإعجابهم بهذه الحضارات ؛ فقد كانت – ولا تزال – دليلاً على عبقرية الإنسان فى تأسيس تلك الحضارات التليدة على الرغم من ندرة وسائل الاتصال والبحث العلمى والإمكانيات المادية كما هو الحال فى عالمنا الحديث. ولا شك أن أساطير الأمم القديمة قد شكلت وجدانها، وكانت انعكاسًا لفكرها وضميرها، مما دعا علماء الأنثربولوجيا (علم الإنسان) إلى الاهتمام بكل ما هو قديم بعناية فائقة ومحاولة معرفة المزيد عن شكل الحياة وتطور الإنسان فى العصور القديمة. وقد شغلت حضارة مصر القديمة – خصوصًا – حيزًا كبيرًا من عقول العلماء والمفكرين فى الماضى والحاضر من أجل أن يسبروا أغوار ما خفى عنهم من أسرار حضارة كانت من أعظم حضارات العالم القديم.

وما قامت حضارة أمة فى تاريخ الإنسانية إلا على هَدْى، ولو شعاع، من الحضارات التى سبقتها، وحتى فى العصر الحجرى كان من صَنْع آلات الصيد وجمع الثمار مهتديًا بحضارة سابقة ألا وهى حضارة السماء التى أسسها الخالق سبحانه وتعالى، وعاش فيها آدم أول مخلوق بشرى مع زوجته حواء؛ فاستعان بما رآه فى عالم السماوات ليؤسس أولى حضارات الإنسان، وهذا ما نفهمه من قول الخالق فى كتابه الذى ختم به رسالاته إلى الخلق، حيث قال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾(*) .

(*) قرآن كريم – سورة البقرة – آية ٣١ .

ولذلك بُنيت كل الحضارات وليدة العقل البشرى على شيء من التقديس لمعبود خالق وواهب. وعلى الرغم من تعدد الرؤى لماهية هذا المعبود؛ فإن مراحل التاريخ الإنسانى اجتمعت على حقيقة ثابتة، ألا وهى وحدانية خالق هذا العالم وواهب النعم لمخلوقاته.

ولقد كانت حضارة مصر القديمة من أعظم الحضارات لأوجه عديدة، فهى أول حضارة تهتم بأن للكون خالقًا واحدًا، وأنه هو الذى صور وأبدع كل ما فيه من إنسان وحيوان وزروع، ولكن تعددت الآلهة عند الفراعنة – كما سنرى فى هذا الكتاب – بتعدد مدن مصر القديمة، فقد كان لكل مدينة ومنطقة إله خاص بها، يؤمن به العامة ويقدسونه ويبنون له المعابد ويصورونه على هيئةٍ ما تتناسب وفكرهم عنه من قوة وخير وما شابه ذلك.

ولكن بالنظر الدقيق إلى ما ورد فى الكتاب من أن الإله "أتوم" خلق ثمانية آلهة أخرى أطلق عليها مجموعة التاسوع المقدس، فإننا نلاحظ أن المصرى القديم آمن بأن الخالق واحد، أما مجموعة الثمانية فما هى إلا أسماء لملائكة، وقد أورد هذا الرأى الأستاذ الدكتور نديم السيَّار فى كتابه (قدماء المصريين أول الموحدين)، حيث كتب الأستاذ/ سامح كريم فى جريدة الأهرام يوم ٤ يونيو ١٩٩٥م ما يلى: " ... **كتاب (قدماء المصريين أول الموحدين) للدكتور نديم السيَّار يُثْبت أن قدماء المصريين لم يعبدوا سوى الله منذ عصر ما قبل الأسرات ... بالحجة والدليل**" .

جاء أيضًا فى الصفحة الدينية لجريدة الأهرام بتاريخ ٧ يونيو ١٩٩٥م ما يأتى:

" **... وأوضحت الدراسة التى أعدها الدكتور نديم السيَّار بعنوان (قدماء المصريين أول الموحدين) أن المصريين القدماء كانوا من المؤمنين الموحدين بالله توحيدًا خالصًا، وأن الإله الواحد عندهم يشبه ما نعرفه فى عقيدتنا، وأشارت الدراسة إلى أن الشخصيات الدينية التى عرفها التراث الفرعونى مثل (رع، وآمون، وبتاح) لا تعتبر آلهة فى عقيدتهم، وإنما كانوا يطلقون عليها:(نثر) وهو لفظ يعنى فى لغتهم: (المنتسب إلى العرش الإلهى). وقد استدل الباحث على هذه الآراء بالعديد من الحجج والبراهين**" .

إضـافة لذلك ، نعلم أن المصرى القديم كان أول من آمن بوجود حياة أخروية بعد الموت، وآمن بالحساب فى الحياة الأخرى . ولذا اهتم قدماء المصريين بحياتهم الدنيا من أجل الآخرة. فعلى سبيل المثال نجد الحكيم بتاح حتب ينصح ابنه بهذه النصيحة: "كن سَمِح الوجه وضَّاح الجبين، مُشرق الطلعة ما دمت حيا، ولا تحزن على ما فات، فالمرء يذكر بأعماله بعد موته"[1]. ونرى ذلك أيضًا فى تعاليم الملك "مرى كارع" :

"إنك تعلم أن القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى فى يوم المحاكمة، وفى ساعة تنفيذ الحكم، فتسوء العاقبة عندما يتهمك الإله الواحد العاقل. ولا تعتمد على طول السنين، فإنهم يعتبرون مدة الحياة كأنما هى ساعة واحدة. إن المرء ليُبعث بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه أكوامًا، وما يبتغيه المرء هو الخلود هناك.[2]".

ونجد فى هذا الكتاب كيف ينتصر الخير على الشر، حتى وإن علا الشر لفترة من الزمن؛ فإن الحق يظهر فى النهاية فيدمغه. ففى أسطورة إيزيس وأوزيريس نجد كيف تمكن ابنهما الإله حورس من هزيمة عمه الإله ست واعتلاء عرش أبيه بعدما استولى عليه ست بالخديعة والمكر. ونجد فى نفس الأسطورة كيف يلجأ المصرى القديم إلى تقديم الخير والعون للمحتاج مثل ابنة الصياد التى ساعدت إيزيس فنالها من الخير العميم بعد ذلك ما يعكس أهمية مد يد العون للمحتاج.

وكان المصرى القديم يكره الظلم، ففى أسطورة أذكى رجل فى مصر، نجد الصبى يسرق من كنوز الفرعون التى استأثر بها لنفسه دون رعيته، وكيف يحتال ويمكر حتى يدرك الفرعون أن الإمساك به ضرب من ضروب الخيال، فيعفو عنه، ويجعله مستشارًا له.

ومن أهم ما نلحظه فى هذا الكتاب هو براعة المصرى القديم فى تناول الأعمال الأدبية، مثلما برع فى المجالات الأخرى من فلك وطب وعمارة وهندسة وزراعة وملاحة.

---

(١) محرم كمال ، كتاب الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م، ص ٤١ .

(٢) محرم كمال ، المرجع السابق، ص ٤١ .

ويتبين لنا كيف كان المصرى القديم أديبًا ومفكرًا جعل من نفسه مراقبًا أمينًا لهذا الكون.

لذلك فإن خصائص الأدب الفرعونى والمدارس الأدبية المختلفة ، والتى تحدث عنها الكاتب فى تقديمه لأحد الأساطير، تحوى ثروة هائلة من الفنيات ما يجعلنا أكثر إلحاحًا على النقاد المعاصرين لأن يغوصوا فى أغوار هذا العالم البديع.

فعلى سبيل المثال، نجد فى قصة الملاح التائه (نجاة الملاح) هذه القدرة الفائقة على سرد أحداث وقعت لملاح مصرى كان فى رحلة عودته من بلاد النوبة إلى طيبة، عاصمة مصر القديمة. وتتجلى فى هذه القصة فنيات القص وعوامل التشويق والقدرة على الحبك الذى قلما تجده فى أدب العالم القديم.

ولأن الكتاب تضمن أفكارًا وموضوعات متعددة ومختلفة، فقد لاحظت على المؤلف – وأعتقد أنه موفق فى ذلك – أنه تعمّد بساطة العرض ووضوح الرؤية. وأعتقد أن ذلك التبسيط يفتح مجالاً أوسع لقراءة هذه العوالم المليئة بالطلاسم والأساطير التى يصعب على العقل المعاصر تصديقها، حيث يغلب عليه الفكر المادى البحت. وربما لجأ المؤلف أيضًا إلى التبسيط ليجعل من الكتاب مصدرا تعليميا، وربما هو كذلك فعلاً لالتزام المؤلف بالتقديم وعرض الأسئلة والأجوبة وتعليق الخبراء حول كل قصة على حدة.

ولكن الحقيقة التى أؤكد عليها أن بساطة أسلوب الكتاب هى من أولى الأسباب التى جعلتنى أقدم على ترجمته لرغبتى فى أن يجد القارئ المصرى عرضًا مختلفًا لهذه الحضارة التليدة.

وأعترف أن إعجابى بأسلوب عرض الكتاب ساقنى إلى الطريقة نفسها فى عرض ترجمته حتى شعرت أن الكاتب، وربما المصرى القديم نفسه، أجبرنى أن أكون مجرد ناقل محايد أو "بوسطجى" يسلمك رسالة من صديق لك. فاغفر لى قارئى العزيز هذه الموضوعية فى أسلوب العرض، ولكن ما يشفع لى أن من أهم ما يميز هذا الكتاب هو

عرضه لأساطير الفراعنة بأسلوب مبسط وميسر تدلف منه إلى حياة المصرى القديم بسهولة ويسر، فتمسُّ خلال رحلة قراءتك لهذا الكتاب فكرَ المصرى القديم ووجدانه، وكأنك عايشته وأنت فى القرن الحادى والعشرين الميلادى.

القاهرة فى ٢٨ سبتمبر ٢٠١٠م .

تمهيد

لقد كانت طبيعة الآلهة فى الأساطير المصرية، إلى جانب أفعالهم والعادات المحيطة بعبادتهم، تعكس بشدة الخصائص المادية لمصر ولثقافتها الفريدة. كما تعكس الشخصيات الأخرى الموروث المحلى للبلاد.

ومن ناحية أخرى نجد أن مصر تمتلك موقعًا متميزًا. حيث تقع فى شمال شرق قارة أفريقيا، وتتكون بشكل أساسى من مساحات شاسعة من الأرض الصحراوية الجافة تمتد لمئات الأميال فى كل الاتجاهات. وكان أغلب المصريون القدماء يعيشون على شريط ضيق خصيب جدا يحيط بوادى نهر النيل المنحدر من مرتفعات أثيوبيا جنوبيًا ليصب فى البحر المتوسط شمالاً. وفى هذا الوادى الخلاق المبهج، المشبع بمياه النهر، شيد المصريون القدماء أول حضارة عظيمة فى العالم.

ثلاثون قرنًا من الأسرات الحاكمة والفراعنة:

ظلت بدايات هذه الحضارة التى استمرت لآلاف السنين مفقودة فى غياهب الزمن. ولكن أدرك المؤرخون يعرفون أنه بداية من عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد، أى منذ نحو ٦٥٠٠ سنة من الوقت المعاصر، كانت مصر تتألف من إقليمين مستقلين، كل منهما له ثقافته المتقدمة نسبيا والتى من خلالها عاش الناس معا فى القرى، وزرعوا الأراضى وربّوا الدواجن والمواشى. وبالتدريج نما هذان الإقليمان ليكوّنا مملكتين لكل منهما حاكم يحكمها هما ما عرفا باسم مملكة مصر العليا (الوجه القبلى) والتى امتدت من أسوان فى أقصى الجنوب متجهة شمالاً إلى مدينة منف (ممفيس)، والمملكة الثانية باسم مصر السفلى (الوجه البحرى)، والتى تكونت من الأراضى الواقعة شمال منف،

بما فى ذلك دلتا نهر النيل الخصيبة مروحية الشكل، حيث يصب النهر مياهه فى البحر المتوسط. (وقد بنى المصريون تصورهم لمصر العليا ومصر السفلى بناء على اتجاه جريان مياه نهر النيل. فكان منبع النهر عندهم يمثل الأعلى أو جهة الشمال، ومصبه (عند البحر المتوسط) يمثل الأسفل أو الجنوب، بينما على الخريطة الحديثة يجرى النهر من الجنوب إلى الشمال).

وتم توحيد هاتين المملكتين فى النهاية ليُكوِّنا دولة واحدة فى فترة ما بين ٣١٥٠ و٣١٠٠ قبل الميلاد على يد الملك (نعرمر)- مينا وهو حاكم قوى كان يحكم مصر العليا. وقد لُقِّب بالفرعون(*) واتخذ منف عاصمةً له. ومنذ ذلك الحين، كان من تَبِعه من الحكام المصريين يسمى "الفرعون". أسس مينا أيضًا أول أسرة حاكمة (سلسلة متوالية من الحكام ينتسبون لعائلة واحدة) فى مصر[١].

وقد حققت مصر فى خلال السنوات الألفين التالية لتوحيد مينا لمصر، أعلى مستويات القوة والسيطرة والإنجازات الثقافية. وقد قسَّم المؤرخون حديثًا هذه الفترة الطويلة إلى فترات أقصر لعرض الحقائق بصورة أكثر ملائمة. كانت الفترة التى تضمنت الأسرتين الأولى والثانية، والتى حكم خلالها ستة عشر فرعونا، تسمى بعصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق (من نحو ٣١٠٠ إلى ٢٦٩٠ ق. م.). وقد تلتها فترة تسمى بالدولة القديمة (من ٢٦٩٠ إلى ٢١٨٠ ق. م.)، والتى شُيِّدَ خلالها معظم الأهرامات الكبرى. وتلى بعد ذلك مرحلة الانتقال الأول، ثم قامت بعدها مرحلة عصر الدولة الوسطى (من ٢٠٥٥ إلى ق. م.) وفيها اتسعت التجارة مع الشعوب المجاورة

(*) لقب فرعون لم يتلقب به حكام مصر سوى بدءًا من عصر الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية محورًا عن بر-عا (عو) بمعنى البيت الكبير(العظيم)، وفى مرحلة تالية حلت الباء محل الفاء ليصبح النطق فرعا (فرعو) ومن بعد فرعون. (المراجع)

الأخرى كما بسطت مصر نفوذها على مناطق عديدة من بلاد النوبة؛ وهى منطقة تقع فى جنوب مصر. وتلى عصر الدولة الوسطى مرحلة انتقالية عرفت باسم عصر الانتقال الثانى ومرحلة الهكسوس، وأخيراً عصر الدولة الحديثة (من ١٥٥٠ إلى ١٠٧٠ ق.م.)، التى قام خلالها سلسلة من الحكام الأقوياء بغزو أجزاء أخرى من بلدان الشرق الأدنى القديم وفتحها، صانعين بذلك إمبراطورية مصرية عظمى(٢).

بعد نهاية عصر الحديثة، دخلت مصر فى حقبة طويلة من الانحدار بسبب ضعف حكامها، والتى أدت إلى تمكين الأجانب من الفرس ، واليونان، وقوى أجنبية أخرى من الاستيلاء على عرش مصر. فى نهاية الأمر، وفى سنة ٣١ ق. م.، هزم الرومان – الذين أسسوا إمبراطورية متوسطية شاسعة وقوية – آخر حكام مصر المستقلين، وهى الملكة الشهيرة كليوباترا السابعة (والتى كانت فى الحقيقة يونانية). وعلى مر القرون الثلاثين من فترة حكم نعرمر – مينا إلى فترة حكم كليوباترا، حكم الدولة المصرية أكثر من مائتى فرعون [حاكم] ينتمون إلى نحو ثلاثين أسرة حاكمة.

الأرض والهرم الاجتماعى:

فى أثناء تلك الفترة التى دامت لثلاثة آلاف عام، لم تتغير الحياة اليومية للمواطن المصرى العادى بشكل جوهرى. وكان معظم أفراد الشعب من الفلاحين واعتمدوا بشكل شبة كامل على مياه نهر النيل لندرة سقوط الأمطار. وكانوا يحتاجون مياه نهر النيل للشرب وطهى الطعام والاغتسال وغسل الملابس وريّ المحاصيل. كانوا أيضًا يسافرون من مدينة إلى أخرى عبر النهر باستخدام المراكب (الصنادل) والقوارب.

بالإضافة إلى ذلك، استخدم الشعب المصرى دورة مياه نهر النيل ليحسبوا مرور الزمن وفصول السنة. على سبيل المثال، كانوا يسمون الفترة من يونيو إلى سبتمبر بفصل أخت [الفيضان]، حيث يفيض النهر ويغطى الحقول باعتدال على طول ضفتيه

لأكثر من بضعة أقدام من المياه تاركًا طبقة جديدة من الطمى الخصيب. لم يكن من الممكن أن تُزرع الأراضى فى أثناء فصل الفيضان. لذلك كان كثير من الناس يتخذون من تلك الفترة فرصة للراحة. وكان ينشغل آخرون فى صناعة الأوانى الفخارية والمجوهرات وبعض الحِرَف الأخرى. بينما تعمل مجموعة ثالثة من الناس فى المشروعات التى تتبناها الدولة بما فى ذلك بناء الأهرامات والمعابد والإنشاءات المعمارية الضخمة الأخرى.

أما فى فصول السنة الأخرى، فيرجع كل المصريين تقريبًا إلى الحقول، مع بقاء القليل من الحرف والأعمال التجارية مثل النجارة والصناعات المعدنية طوال العام. فى وقت الزراعة، وفى فصل برت [الإنبات وبذر الحبوب] (من أكتوبر إلى فبراير)، يحرث الفلاحون حقولهم ويزرعون بذور كثير من المحاصيل. ومنها القمح والشعير ، والكتان (والذى يستخدم لصناعة الملابس الكتانية)، ونبات البردى (لصناعة الورق)، والعديد من الفواكه والخضروات. فى فصل الجفاف، الذى يسمى شمو [الحصاد] (من فبراير إلى مايو)، يحصد الفلاحون هذه المحاصيل. كما كانوا يربون الماشية والماعز والأغنام والخنازير والحيوانات المنزلية الأخرى.

هناك عدد قليل من المصريين لم ينتموا إلى الطوائف العاملة فى الزراعة أو تربية الحيوانات المنزلية أو حتى الصناعات والأعمال التجارية المتعددة. وكانت هذه الفئة الاجتماعية – غالبًا – من الشخصيات البارزة.والأكثر ثراءً فى المجتمع، والذين كانوا يديرون أمور الطبقات الأكثر فقرًا. وأشار العالم ليونيل كاسون Lionel Casson إلى الأمر بقوله:

"لقد كوَّن البناء الاجتماعى لمصر هرمًا متقنًا تمامًا مثل ما بنى لملوكها. فقد قام صلبًا على قاعدة عريضة من جماهير الفلاحين الذين كرّسوا حياتهم لزراعة الأراضى الخصبة. فوق هذه القاعدة الهرمية، نشأت سلسلة من الطبقات الأضيق فالأضيق وهم: رؤساء القرى ومعاونوهم، حكام المقاطعات المختلفة التى

قُسِّمت إليها الدولة تقسيما إداريا ومعاونوهم، وزراء الدولة وموظفو العاصمة الكبار، ثم على قمة هؤلاء كان الفرعون [الملك/ الحاكم]"[٣] .

كان المصريون ينظرون إلى الفرعون باعتباره إلها حيا ، وكان يقيم بكل رفاهية وفخامة فى قصور ساحرة وهائلة مع زوجاته وأطفاله ومستشاريه وحاشيته من النبلاء. هؤلاء الصفوة من الناس كانوا ينعمون بمئات من الخدام الملكيين، منهم الأطباء والكتبة (لكتابة الخطابات وحفظ السجلات) والحراس والخادمات والطهاة والخبازون والحائكون والنحاتون وقائدو المركبات وحراس الإسطبل. وعلى النقيض، كان معظم الفلاحين المصريين يعيشون فى أكواخ بسيطة مصنوعة من القرميد المجفف بالشمس (الطوب اللبن). مثل هذه المنازل المتواضعة كانت – وبشكل ثابت – تتألف من حجرة أو حجرتين صغيرتين ذات أرضية من الطين، وفى بعض الأحيان كانت حيوانات صاحب المنزل تعيش معه مثل بقية أفراد عائلته.

المعتقدات الدينية وطقوس الجنازية :

كان كل المصريين – فقراؤهم وأغنياؤهم – متديِّنين مخلصين. وقد عبدوا آلهة كثيرة. فى العصور الأولى المبكرة، قبل عصر بداية الأسرات وخلاله ، كانت كل مقاطعة (وتسمى نوموس [فى اليونانية]) لها معبودها الخاص. بعد ذلك، وفى أثناء عصر الدولة القديمة، قام الفراعين (الملوك) وكبار الكهنة بتطوير العقيدة بشكل قومى. وقد دمجت هذه الديانة الجديدة الكثير من – إن لم يكن معظم – الآلهة والمعتقدات والطقوس فى المناطق المحلية. لذلك فإن الديانة المصرية المدعمة بكثير من الأساطير القديمة عن الخلق والآلهة وأفعالهم أصبحت متنوعة ومعقدة إلى حد ما. بالإضافة إلى ذلك، فإن صور كثير من الآلهة وطقوسها وأهميتها وسلطتها قد تغيرت وتطورت على مر قرون كثيرة. فى هذه العملية المتطورة، أصبح عدد من الآلهة المحليين أكثر تقديسًا باعتبارهم آلهة خالقة، كل منهم كان له أسطورة خلق مختلفة؛ كما دمجت فى النهاية هويات بعض الآلهة مع ما كان لآلهة آخرين[٤].

وقد آمن المصريون أيضًا بالحياة الأخرى. وتمنى الجميع أن ينتقلوا بعد موتهم إلى العالم السفلى الذى يحكمه الإله أوزير، ليستمتعوا هناك بالحياة الأبدية السعيدة. واعتقد المصريون أيضا أن أرواحهم هى ما يحيا بعد الموت وليس أجسامهم المادية. وكانت العقيدة الشائعة أن الروح تتكون على الأقل من كيانين أولهما يسمى "كا"، وهذا كان يمثل قوة حياة الشخص، باعتباره نوعًا من المَلَك الحارس والذى يبقى مع الجسد فى القبر. فى المقابل، يمثل الـ "با" شخصية الإنسان التى ستغادر القبر وتصعد إلى السماء. وكان هناك اعتقاد شائع بأن النجوم هى عبارة عن مصابيح زيتية لعدد لا نهائى من أرواح الـ "با"[٥].

وحيث اعتقد المصريون أن الجسد وجزء من القرين [الكا] يبقيان فى القبر، فقد رأوا أنّ خطوات الدفن وعاداته أمور فى غاية الأهمية. وكل من كانت لديهم القدرة المادية بنوا المقابر من القرميد أو الحجر. وكانت الأهرامات بالطبع من أضخم المقابر الحجرية وأوسعها شهرة، والتى دُفن فى معظمها طبقات الملوك والنبلاء[*]. وقد شيد المصريون ما يزيد على تسعين هرمًا. أكبرهم كان هرمى خوفو (حكم من ٢٥٨٩ إلى ٢٥٦٦ ق. م.) وابنه خفرع (حكم من ٢٥٥٨ إلى ٢٥٣٢ ق. م.). هذان الصرحان العملاقان ارتفعا فوق هضبة بالجيزة، على بعد أميال قليلة شمال منف. عادة ما يسمى هرم خوفو – أكبرهما – بالهرم الأكبر، ويبلغ طول كل جانب من الجوانب الأربعة لقاعدته ٧٥٦ قدمًا. هذه القاعدة تغطى مساحة تزيد على ثلاثين فدان. وقد استخدم لبنائه نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة حجرية تزن الواحدة منها ما بين طن ونصف طن وطنَّيْن[٦].

ولم يكن معظم المصريين يمتلكون القدرة على تشييد مثل هذا الهرم لكى يضعوا فيه أجسادهم. إلا أن كل واحد كان يرتب لطقوس معينة لكى يضمن لنفسه القدرة على

(*) الهرم بوصفه شكلا معماريا للمقبرة الملكية اقتصر استخدامه بصفة أساسية للملوك، وجزئيا للزوجات الملكات الرئيسيات، ولم يعرف استخدام هذا الشكل المعمارى لمقابر النبلاء . (المراجع)

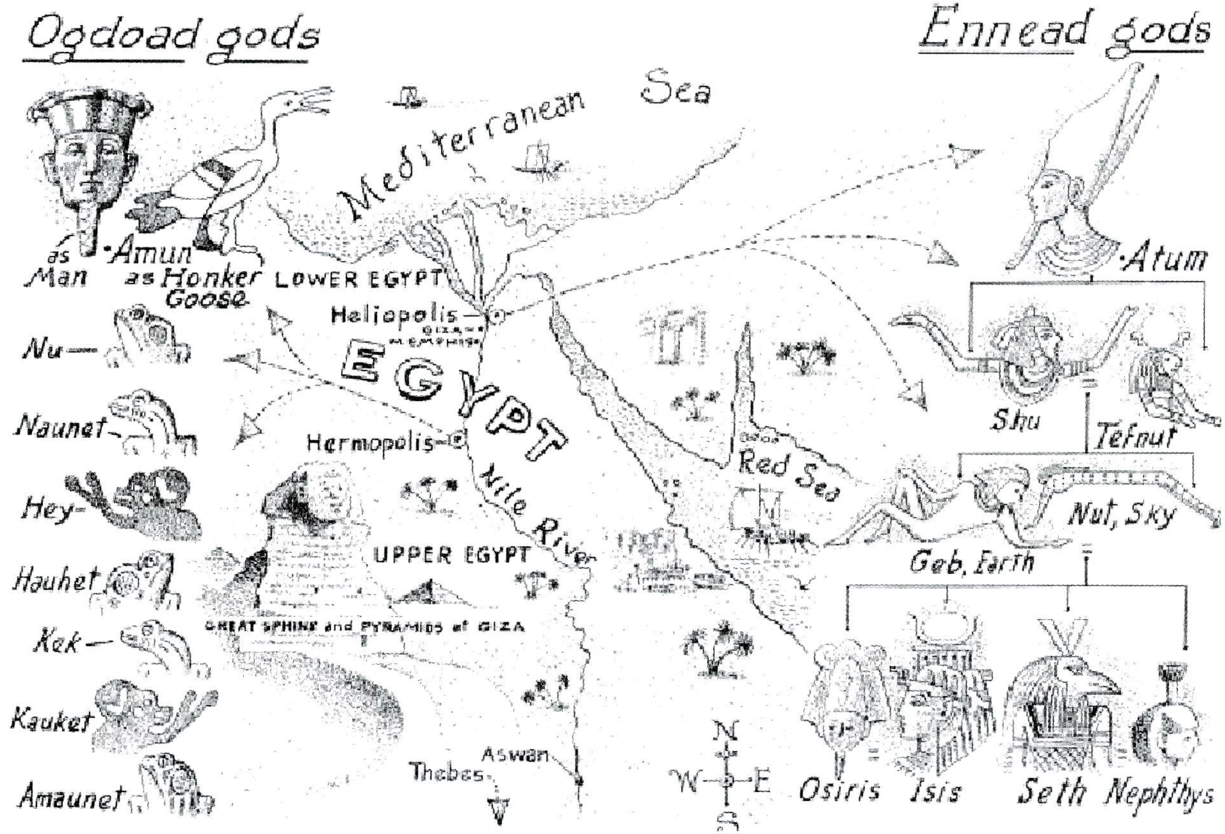
استكمال الرحلة من أرض الحياة إلى مملكة أوزيريس فى العالم السفلى. وكان من هذه الطقوس حفظ الجسد؛ عن طريق وضعه فى قبر مناسب كما يضعون الطعام والملابس والأدوات وأشياء أخرى من أجل مساندة الـ "كا". أما بالنسبة لفقرائهم، فقد كانت الممارسات الشائعة أن يلف الجسم فى كفن واقٍ يصنع من الكتان أو البوص ويوضع فى قبر محفور فى الرمال ومعه بعض القرابين والتقدمات من الطعام.

أما القليلون ممن كانت عندهم القدرة المادية، فكانوا يحفظون أجسادهم عن طريق تحنيطها. وتاليا لزيارة المؤرخ اليونانى هيرودوت Herodotus لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد كتب التقرير الآتى عن المحنطين المصريين. هؤلاء الذين حولوا الجثث إلى مومياوات:

"عندما يوافق أقارب الميت على تكلفة التحنيط، يغادرون المكان تمامًا ويتركون المحنطين ليقوموا بعملهم. وتتم عملية التحنيط المثالية كما يلى: يتم استخراج أكبر قدر ممكن من المخ من خلال ثقوب الأنف باستخدام خطاف حديدى، وما لا يستطيع الخطاف استخراجه يتم التخلص منه عن طريق بعض العقاقير؛ بعد ذلك يُفتح الخصر (جانب الجسم) باستخدام سكين من الصوان وتُزال جميع محتويات البطن ثم يُنظف تجويف البطن ويُغسل جيدًا .. أولاً باستخدام نبيذ النخيل ثم مرة ثانية باستخدام توابل مسحوقة .. بعد ذلك يوضع الجسم فى النترون (أملاح معدنية) ويغطّى فوقه بإحكام لمدة لا تزيد على سبعين يومًا. عندما تنتهى هذه المدة، يُغسل الجسم ويُلّف من الرأس إلى القدم فى رقائق من الكتان ويُدهن الجانب السفلى بالصمغ. وعلى هذه الحالة يتم إعطاء الجسم إلى عائلته التى تكون قد أعدّت تابوتا خشبيا بشكل بشرى ليضعوا فيه المتوفى[٧]".

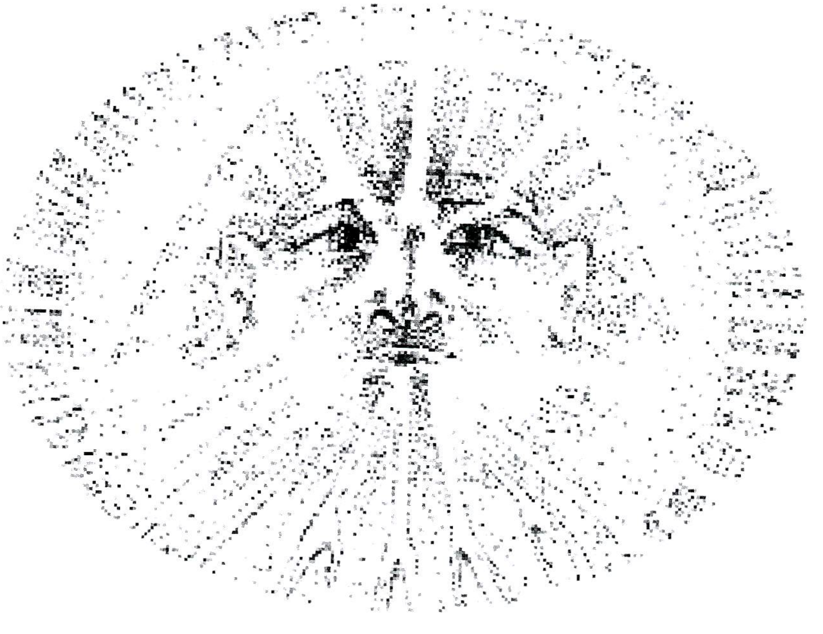
وسواء تحنط الجسم أو لا، فإن المصريين كلهم كانوا يتمنون أن يكونوا يومًا ما فى معية أوزير وبعض الآلهة المخلدين الآخرين والذين لعبوا أدوارًا محورية فى كثير من الأساطير الشعبية التى توارثتها الأجيال.

THE GODS OF EGYPT



(١)

خلق الآلهة والبشر



مقدمة

كان خلق الكون محوراً رئيسيا للعقيدة المصرية القديمة. وتسمى قصة نشأة الكون وما يحويه من مخلوقات بنظرية نشأة الكون (والتى يتم خلالها دراسة طبيعة الكون المخلوق وتركيبه، ويعبر عنها بالكوسمولوجيا). وكان لدى المصريين نظريات مختلفة ومتعددة لنشأة الكون تعايشت سويا وكملّت بعضها بعضًا. وهذا ربما يبدو غريبًا فى العصر الحديث لدى المسيحيين واليهود والمسلمين والذين يؤمنون بقصة واحدة للخلق.

والسبب الرئيسى فى تعدد أساطير الخلق عند المصريين هو أن دياناتهم كانت محلية بطبيعتها. يقول أوجين كروز- أوريب Eugene Cruz-Uribe الباحث بجامعة أريزونا الشمالية: " كان لكل مدينة أو منطقة معبودها الراعى لها. وكانت المعابد تقام على المواقع التى يفترض أن يكون قد تم فيها الخلق. كان من الممكن لكل مدينة أن تتخذ قصة للخلق بحيث يكون معبودها هو الخالق[١]. وبذلك طورت الأقاليم المتعددة للدولة عادات دينية محلية قوية جدا.

على المستوى القومى، أدرك الملوك – المعروفون بالفراعنة – بحكمة أن معرفة كل هذه العادات المحلية هى سبيل للإبقاء على الولاء والنظام. ووفقا لما ذكره عالم المصريات بجامعة براون ليونارد هـ . ليسكو Leonard H. Lesko : "إن الأساطير المحلية من كل أنحاء البلدة قد ترافقت مع بعضها بعضًا فى منظومة، ربما حدث ذلك تدريجيا أو على نحو سريع ... وقصد بذلك أن تحوى أغلبية الآلهة وبذلك ترضى الناس كافة[٢] .

كان هنالك أربع نظريات مصرية حول نشأة الكون (بالإضافة إلى نظريات أخرى فرعية)، كل واحدة منها ارتبطت بالمدينة أو المنطقة الجغرافية التى نشأت بها . فإحداها نشأت بمدينة هليوبوليس " مدينة الشمس " وكانت قائمة على موقع عاصمة مصر

الحديثة، القاهرة . وكان الإله الخالق لتلك المدينة هو آتوم سيد السماء، يقال إن آتوم كان الخالق لثمانية آلهه آخرين هم : شو، وتفنوت، وجب، ونوت، وأوزير، وست، وإيزيس، نفتيس. هؤلاء الثمانية وآتوم نفسه كان يطلق على مجموعتهم التاسوع المقدس أى مجموعة الآلهة التسعة.

فى منف، (على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من هليوبوليس [عين شمس])، وقد كانت أقدم عاصمة قومية لمصر، تمركزت قصة الخلق فقط حول الإله بتاح. فقد اعتقد كهنة منف أن بتاح كان لديه القوة التى تجعله يخلق أعضاء التاسوع المقدس، بما فيهم آتوم؛ فقط من خلال التلفظ بأسمائهم.

على العكس، فى مدينة الأشمونين (هيرموبوليس) ، وعلى بعد مائة وخمسين ميلاً جنوب منف، تضمنت قصة الخلق الرئيسية مجموعة أخرى من الآلهة. هذه المجموعة التى تسمى ثامون الأشمونين كان لديها ثمانية أعضاء هم : نو – نونت – حو – حوحت – كوك – كوكت – آمون – آمونت. وقد اعتقد كهنة منف (ممفيس) أن هذه المجموعة هى التى خلقت آتوم الذى قام بخلق البشر والحيوان.

وأخيرا فى طيبة تلك المدينة المهمة التى تقع على بعد بعض مئات الأميال من هيرموبوليس [الأشمونين]، اجتمع الكهنة على آمون وحده ، أحد أعضاء الثامون. ولأن كهنة طيبة اعتقدوا أن آمون هو الذى وجد قبل باقى أعضاء الثُّمانية، فقد أصبح عندهم "الأول الذى منح الوجود للأوائل" .

ومن المهم أن نعرف أن المصريين فى النهاية عرفوا وعبدوا كل هذه الآلهة وتوصلوا إلى أن قصص الخلق المختلفة كلها صالحة بشكل متساو. وعلى الرغم من أن العادات المحلية تضاربت مع بعضها بعضًا فى أشكال معين؛ فإنها قد اشتركت أيضًا فى مفاهيم وآلهة ومناسبات معينة. كان ذلك صحيحًا على الأخص فى عقيدة طيبة، المذكورة أدناه، وقد حاولت أن تكتسب شرعيتها عن طريق دمج عناصر العقائد الثلاثة الأخرى وربط الآلهة الأخرى بآمون. ومن ثم يقوم آمون بالدور الرئيسى نفسه للخالق فى نظرية طيبة والذى يقوم به آتوم فى نظرية هليوبوليس، وبتاح فى نظرية منف. كما

تفهمت نظرية طيبة واستوعبت الآلهة الثمانية فى هرموبوليس؛ الفرق الوحيد هو أن آمون عند عقيدة هيرموبوليس هو أحد الثمانية وحسب، أما فى طيبة فهو الأول والخالق للسبعة الباقين. وبنفس الطريقة، تستوعب نظرية طيبة آلهة التاسوع المقدسة فى هليوبوليس (عين شمس) وممفيس (منف)، ولكنها تدعى أن آمون، بخلاف آتوم وبتاح، هو الذى خلقهم.

تختلف سمات المصادر الأصلية الباقية التى تصف الآلهة المصريين وما يروى من قصص عن خلقهم. فقد يتخذ الكثير منها شكل نقوش (كلمات وصور منحوتة على الحجارة) على جدران المعابد. كما تظهر أجزاء من هذه القصص على شكل نقوش ورسومات وكتابات نجدها فى المقابر والمدافن. على سبيل المثال نجد بعض الكهنة قد نحتوا سلسلة من الرُّقَى والتعاويذ داخل الأهرامات الخاصة - بالفراعنة [الملوك] فى الفترة ما بين ٢٣٥٠ و٢١٥٠ ق. م.، آملين أن يكفل ذلك لهم المرور بسلام إلى الحياة الآخرة[٣]. هذه المنحوتات هى ما يسمى الآن بمتون (نصوص) الأهرامات Pyramid Texts، والتى تُفشى قدراً كبيراً من المعلومات عن الآلهة وأساطيرها.

فيما بعد، وفى الفترة ما بين عامى ٢٠٤٠ و١٧٨٠ ق. م.، كانت الرسوم الخاصة بالأمور الكهنوتية تُرسَم على توابيت النبلاء؛ ولذلك كان الاسم الملائم لها هو نصوص (متون) التوابيت Coffin Texts. وفى مرحلة تالية عثر ضمن البقايا الأثرية لبعض المقابر على نصوص جنائزية مشابهة كُتِبت على لفائف من البردى (شكل مبكر من أنواع الورق عرفت اصطلاحا باسم كتاب الموتى Book of the Dead).

فى الواقع، أُطلق اسم كتاب الموتى من قبل الباحثين المعاصرين. وقد أطلق المصريون القدماء على هذه النصوص اسم " تعويذة للمجىء الوشيك نهاراً". يتكون الكتاب من نحو مائتى تعويذة سحرية، أُخذ الكثير منها من متون الأهرامات والتوابيت. ومن أشهر هذه التعويذات التعويذة رقم ١٢٥(*) . حيث كان فى الغالب يصاحبها

(*) المعروفة اصطلاحا باسم الاعترافات الإنكارية. (المراجع) .

تفاعل قضائى بين الشخص المتوفى والإله أوزيريس والقضاة التابعين له. وتتلخص إجراءات المحاكمة التى ترأسها هذه الآلهة فى أن "يعترف" الشخص أنه لم يكذب ولم يسرق ولم يرتكب أية جرائم أو أعمال شريرة أخرى. إذا وجد أوزيريس وقضاته أن الشخص صادق يسمحون له أو لها بالدخول إلى مملكة الموتى. كانت هذه الفكرة وموروثات أخرى من كتاب الموتى عناصر مهمة فى الميثولوجيا الدينية المعقدة والتى تولد عنها القصص المتنوعة التى ستأتى فيما بعد.

خلق الآلهة والبشر

كيف وجدت الآلهة:

فى البداية، كان الكون قبل التكون فى حالة من الفوضى امتدت مظلمة وصامتة عبر الفضاء ومنذ الأزل. فيما بعد، أصبح أناس فى أجزاء من مصر يرون هذه الهاوية السحيقة التى تحوى محيطًا ليس له حدود من المياه السوداء الميتة، يرونها كائنا حيا. وقد أطلقوا على العدم اسم نو وعبدوه باعتباره إلهًا. أيا كان ما يطلق على هذه الحالة الموحشة والمنذرة من العدم، فقد جاء وقت، منذ زمن بعيد، بحدث درامى مذهل حوّل العدم إلى الوجود. كان ذلك الحدث هو خلق آمون، أول موجود، ملك الآلهة، خالق كل الأشياء. لم يكن يحتاج لأن يخلقه إله. فى الحقيقة، ولأن آمون لم يكن لديه أب أو أم، فقد خلق نفسه بطريقة سرية وغير مرئية بحيث لم يستطع بشر أن يعرفها ولن يكتشفها أحد فيما بعد.

وحيث جاء آمون للوجود بطريقة غامضة، فقد تحطم سكون الكون الأشبه بالموت من خلال صوته الثاقب. هذا التحول العظيم انتقل إلى باقى المخلوقات. واعتقد الناس فى بعض أجزاء من مصر اعتقد الناس أن آمون اتخذ شكل أوزة ضخمة فى المرحلة الأولى من وجوده. وبالتأكيد أخذ آمون فى التحول والتجسيد إلى أشكال أخرى مختلفة، كلما شاء أو تطلب ذلك.

أول الأشكال التى اتخذها آمون لنفسه كانت عبارة عن أحد أعضاء الثامون ، والتى أصبحت بعد ذلك مقدسة عند كهنة الأشمونين. وقد زعم الكهنة أن الآلهة الثمانية الأوائل (نو – نونت – حو – حوحت – كوك – كوكت – آمون – آمونت) كانت تتخذ رؤوس الضفادع والأفاعى السابحة فى المياه المعتمة الموجودة قبل التكون. وعلى

العكس، قال كهنة طيبة إن آمون العظيم خلق السبعة الباقين أولاً ثم التحق بهم باعتباره العضو الثامن فى الثامون.

قال الكهنة إن آمون بعد ذلك اتخذ شكل أول يابسة. وعلى هذه الرابية البدائية [التل الأزلى](*) بدأ فى خلق التاسوع، مجموعة من تسعة آلهة أصبحت بعد ذلك مقدسة من كهنة هليوبوليس (عين شمس) ومنف. وقد تكونت هذه المجموعة من (آتوم، وشو، وتفنوت، وجب، ونوت، وأوزير، وست، وإيزيس، ونفتيس). فى ذلك الوقت، خلق آمون أيضًا الإله خنوم ذا رأس الكبش مع باقى الآلهة والأرواح والشياطين الذين يسكنون فى السماء والأرض والعالم السفلى. بالإضافة إلى ذلك، أقام آمون على مركز الرابية البدائية [التل الأزلى] أول مدينة - طيبة المقدسة - والتى أصبحت موطنًا لكثير من الآلهة.

(*) التل الأزلى الذى بزغ من المحيط اللانهائى من المياه (النو)، وخلق الإله نفسه بنفسه عليه، ثم خلق العالم من بعد (المراجع) .



نشأة البشر . والمدن . والحيوان . والنبات :

بعد هذه الأعمال المجهدة فى ارتباط بالخلق ، صعد آمون إلى السماء وتمثلت فيه شكل وملامح الشمس باعتبارها واهبة الحياة (وفى هذا الشكل يسمى عادة آمون رع). عندما نظر إلى أسفل، بدأ طور جديد من أطوار الخلق، وكان ذلك يعنى الأرض وقاطنيها من البشر. ولكى يُتم هذه المهمة، اختار آمون الإله خنوم ذا رأس الكبش الذى يعتبره المصريون أحد إلهىّ القضاء والقدر بالإضافة إلى آمون. كان خنوم يسيطر على أقدار الجنس البشرى. وبمباركة آمون، بدأ يشكل أول إنسان على دولاره الخزاف الإلهى (عجلة الفخرانى).

بدأ الإله خنوم خلق الإنسان بتصميم العظام من صلصال خاص. وأحاط هذا الهيكل الداخلى بالجلد، والعروق الحاملة للدم، والأعضاء المتعددة بما فى ذلك أعضاء الجهاز الهضمى والتنفسى والتناسلى. وقد وضع فى أجسام أوائل البشر جميع العناصر والتفاصيل المعروفة فى الجسم البشرى اليوم. لكن على الرغم من أن هذه الأجساد كانت مكتملة من حيث التركيب المادى؛ فإنها لم تكن تمتلك معطيات الحياة بعد، بما فى ذلك الحركة والتفكير. لذلك، نفخ خنوم فى أجساد مخلوقاته واهبًا إياهم بعضًا من قوة حياته الخاصة – وبالتالى إحياءهم.



وفى الحال، أصبح من الواضح أن مخلوقات خنوم الجديدة فى حاجة إلى مكان ما تحيا فيه. وبدعم آمون من أعلى، أدار خنوم المياه المعتمة المحيطة بالرابية البدائية (التل الأزلى) ليكوِّن يابسة أوسع وأكبر. وعلى هذه الأرض الجديدة، ساعد البشر الأوائل ليبنوا مدنًا جديدة، معظمها تتبع التخطيط العمرانى لمدينة طيبة المقدسة. وقد أسكن خنوم أيضًا الأرض الجديدة، التى أصبحت بعد ذلك تعرف باسم مصر، بكل أنوا ع الدواب؛ من الطيور إلى الأسماك والتماسيح والخنافس. كما جعل الأشجار والمحاصيل والنباتات الأخرى تنمو بوفرة على سطح الأرض. بمرور الوقت، تكاثر الناس وأصبح لهم أطفال، فأصبحت بعض المناطق الأخرى البعيدة مأهولة بالسكان. ولكن ظلت مصر هى مركز الأرض حيث أقامها آمون والآلهة التى كان قد خلقها بنفسه.

أسئلة وأجوبة

س: ماذا تعنى نظرية نشأة الكون؟

ج: هى عبارة عن قصة تروى كيفية نشأة الكون وما يحويه من أشياء.

س: ما هى الملامح العامة التى اشتركت فيها الأساطير المصرية المتنوعة للخلق؟

ج: أولاً، كل هذه الأساطير تصور حقبة ما قبل وجود الآلهة والتى عرفت بحالة الفوضى، أو الهاوية المفرغة أو السحيقة (هوة)، أو المحيط المظلم، أو بعضها معًا. أحيانًا كان الناس يعتبرون حالة ما قبل الخلق قوة حية يعطون لها اسمًا؛ فى هليوبوليس مثلاً كانوا يسمون هذه المرحلة نو أو نون. بشكل متطابق أيضًا، صورت قصص نشأة الكون الربوة البدائية من اليابسة (التل الأزلى)، وتسمى تا - تنن، والتى استوى عليها إله خالق ونشأت أول مدينة. يعتقد كثير من الخبراء المعاصرين أن الأهرامات التى بناها المصريون مقابر يفترض أن تكون نموذجًا يمثل هذه الربوة الأولى (بينما يعتقد آخرون أن الأهرامات كان يقصد بها طريق من السلالم يوصل إلى السماء).

س: طبقًا لقصة الخلق فى طيبة، ما هى القوة التى حطمت مرحلة السكون الأصلية للكون؟

ج: كان صوت آمون القوى عبارة عن دوى أعلن بداية أول دورة للخلق.

س: فى قصة نشأة الخلق فى طيبة، ما هما المجموعتان المقدستان للآلهة التى خلقها آمون، وأى منهما كان بنفسه عضواً فيها؟

ج: خلق آمون مجموعة التاسوع والثامون وكان عضواً فى ثامون الأشمونين.

س: كيف شكل الإله خنوم ذو رأس الكبش الكائنات البشرية؟

ج: خلقهم من الصلصال، وقد أقامه على دولاره الخزاف (عجلة الفخرانى). ثم نفخ الحياة فى أجسادهم، ليجعلهم يتحركون ويمشون ويفكرون وما إلى ذلك. وخلْق البشر من الصلصال أو التراب فكرة رئيسية شائعة فى المعتقدات الدينية لكثير من الشعوب. فمثلاً، فى إحدى أساطير الخلق اليونانية القديمة، صمم الإله بروميثيوس البشر من الطين. وبالمثل، فى كتاب العهد القديم، خلق الله أول البشر آدم من التراب.

س: طبقًا لقصة نشأة الخلق فى طيبة، ما هو النموذج الذى استخدمه أوائل البشر لإنشاء مدنهم؟

ج: كان نموذجهم هو مدينة طيبة المقدسة، التى أنشأها آمون فى منتصف الربوة البدائية للخلق (التل الأزلى).

تعليق الخبراء

يوجد فرق كبير بين المصريين القدماء وشعب الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى وهو أن معظم المصريين كانوا يتقبلون حقيقة آلهتهم وأساطير الخلق المحيطة بهم بلا استفسار، بينما يرى كثير من الغربيين قصص الخلق لديهم مجرد خرافات. يفسر ذلك بايرون إى شافير Byron E. Shafer الأستاذ المشارك للدراسات الدينية بجامعة فوردهام مع بعض الفروق المهمة:

"بما أن براعة قدماء المصريين تروق حاليًا للمراقبين الغربيين المعاصرين، فإن عقيدة المصريين القدماء تعد لغزًا. كثير من الناس الآن، مع أنهم وبلا شك متعلقون بقضية معنى الحياة، لا أدريون (يعترفون بوجود الإله مع عدم وجود دليل لديهم) أو ملحدون (ينكرون وجود إله أصلاً)؛ كان يوجد قليل من مثل هؤلاء الناس بين المصريين القدماء. يرى كثير من الناس فى هذه الأيام أن معنى الحياة يخرج عن إطار الدين، فهم يرون أن الدين جانبا ثانويا أو عرضيا (جانب ضئيل) فى الحياة؛ وهذا ما كان يعتقده قليل من المصريين القدماء. بالنسبة لمؤمنى اليوم، الكل ماعدا القليل موحدون (يؤمنون بإله واحد). أما بالنسبة للمصريين القدماء، فالكل ما عدا القليل كانوا مشركين (يؤمنون بآلهة متعددة)... نحن نشترط القدرة المطلقة والمعرفة المطلقة باعتبارهما خاصيتين أساسيتين للألوهية؛ وهما ليسا كذلك. نحن لدينا سجل لكتاب مقدس (مثل الإنجيل والقرآن) ولكنهم ليس لديهم. نحن نرفض السحر، وهم يقبلونه. نحن نرى أن تكون الحكومات علمانية (ليست دينية) والحكام بشر كليةً؛ وهم يقدسون حكوماتهم ويجعلون الحكام – بشكل ما – آلهة. نحن نؤمن أن العالم فى حاجة للتطور. ومن ثم (لو كنا متدينين) يتغير عن طريق طاعتنا لأوامر الله التى

أوحاها؛ وهم كانوا يؤمنون أن العالم يجب أن يظل كما هو إلى أن يُكتب له الاستقرار بإجراءات حكومية تأتي من أعلى[٤].

فى الاقتباس التالى من كتابه عن الأساطير المصرية، يفترض الباحث جورج هارت George Hart، بالمتحف الإنجليزى وجامعة لندن، علاقة محتملة بين أسطورة الخلق من قبِل الإله خنوم وقصة الخلق اليونانية الشهيرة:

" كان هناك افتراض أن فكرة خنوم الذى يخلق كائنا بشريا على دولار الخزاف (عجلة الفخرانى) والتى تعود إلى النقوش والنحت المصرى القديم.... لا بد أنها أثرت فى المعتقدات التى صورها الشاعر اليونانى هسيود (نحو ٧٠٠ ق. م.) حول خلق باندورا، والتى يصفهما معًا فى عملِه "الثيوجونيا (مبحث أصل الآلهة وتحدرهم) والأعمال والأيام". هناك، أمَرَ زيوس (كبير الآلهة الإغريق) هيفايستوس (إله النار والتعدين) بأن يصوغ امرأة من الطين، هى باندورا، والتى سوف تجلب لعالم الإنسان آلامًا ليس لها حدود. ولكن من المحتمل أن مفهوم باندورا عند هسيود يعبر عن فكر مختلف، فمن المؤكد أن نوايا زيوس الماكرة بعيدة كل البعد عن روح الفضيلة عند خنوم[٥]".

(٢)

قتل أوزير



مقدمة

كان أوزير أحد أهم الآلهة فى مصر. وكما تقول قصة الخلق فى عين شمس، كان أوزير ابنا للإلهين نوت (السماء) وجب (الأرض)(*). وقد كان هو ووالداه من الآلهة التسعة الذين كوّنوا تاسوع عين شمس. فى البداية، كان أوزير إله الخصب والنماء المسؤول عن الإنبات والأراضى الخصبة فى دلتا نهر النيل. إلا أنه أصبح بمرور الوقت معروفًا بحاكم العالم السفلى. وكان فى الوقت نفسه أخًا وزوجًا لإيزيس؛ وهى عضو آخر فى التاسوع. لم تكن العائلات الملكية فى مصر القديمة تشعر بالحرج من حيث تحريم نكاح المحارم، كما هو معروف لدى الشعوب الحديثة. وكان هؤلاء الحكام يعدون فكرة زواج أوزير من إيزيس وخروج مولود منهما شيئًا من العدالة ونموذجًا لنجاح مثل هذه الزيجات الملكية بين الأخ وأخته، وهذا ما أصبح شائعًا فى كثير من الحضارات القديمة.

وجسد المصريون فى رسومهم أوزير عادة مومياء ملفوفة فى ضمادات، ولكن يديه حرتان تمسكان بصولجان (عصا الحكم) ومذبة. وهذه كانت العلامة الرئيسية المميزة للملكية المصرية. كان الصولجان عبارة عن عصا ملكية على شكل خطاف؛ أما المذبة فكانت عبارة عن عصا بها شرائط عديدة من القماش مربوطة من ناحية واحدة. أحيانًا كان يوضع على رأس أوزير قرنى كبش فى بعض الصور، ولكن فى معظم الصور كان يرتدى الـ "أتف"، وهو تاج أبيض صنع على شكل أشبه بقنينة البولينج مزينًا بالريش من الجانبين. وكان جلد الإله أوزير ما بين الأبيض والأسود والأخضر؛ حيث كان اللون الأخير مرتبطًا بفكرة البعث أو تجدد الميلاد.

(*) أعتبرت نوت إله السماء وجب إله الأرض فى العقيدة المصرية. وعكست نظرية للخلق أخرى مفهوم التزاوج الدينى بيد السماء والأرض لخلق الحياة فى مصر الجديدة. (المراجع)

حقيقة فى قصة أوزير الرئيسية يتم قتله، ولكن بعد ذلك يبعث مثل المسيح عليه السلام . كانت هذه القصة فى صلب العقيدة الدينية للمصريين وبالمثل لدى الأسرات الحاكمة للفراعنة فى مصر. وفكرة الجمع بين إله الخصب والنماء مع صورة المسيطر على العالم السفلى أو عالم الموتى كانت تعبر عن قوة هائلة مطلقة. وفى الفترة السابقة لعام ٢٤٠٠ ق. م.، كان الملك حينما يموت، تحل فيه روح أوزير أو هكذا كان يعتقد الناس، بينما يتطابق خليفته مع حورس ابن أوزير. وقد رأى المصريون هذا التطابق بين البشر والآلهة باعتباره أروع مثال على نظرية الموت والتجدد والتى انتشرت فى كل مكان من العالم الطبيعى. فقد كانت فكرة الميلاد والموت والبعث أحد أركان العقيدة الدينية عند المصريين.

وقد اكتُشِفت أجزاء من نصوص قصة أوزير على أوراق بردى متنوعة وعلى بعض الكتابات المدونة على الأحجار. ومع ذلك، فإن الرواية الأشمل دُوِّنت بعد ذلك بفترة بعيدة وفى عام ١٠٠م على يد الكاتب اليونانى بلوتارك Plutarch فى قصته "حول إيزيس وأوزيريس". (وقد كان اليونان والرومان يعيدون رواية القصص المصرية وبعض قصص الشرق الأدنى القديم). وبجانب أوزير وزوجته وأخته إيزيس وابنهما حورس، كان ست أخا أوزير واخته نفتيس من الشخصيات الرئيسية فى أحداث تلك القصة.

قتل أوزير

ست يتغلب على أوزير :

جاء على المصريين عصر ذهبى كانوا يعيشون خلاله فى رخاء وسعادة. تحت رعاية ملك الشمس رع، كان الإله الطيب أوزيريس يحكم الأرض ملكًا. وعلت العرش بجانبه أخته الربة إيزيس بصفتها زوجته وملكة مصر الجميلة الحكيمة ذات الإرادة الصلبة. كان أوزير فى الحقيقة ملكًا عطوفًا ومتعاونًا. فقد علَّم المصريين كيف يزرعون المحاصيل ويسقونها بالمياه التى كانت تتوفر بغزارة عندما يفيض نهر النيل على ضفتيه كل عام. كما علمهم كيف يسنون القوانين وكيف يعبدون الآلهة بالطريقة السليمة. وفى النهاية، خرج الملك الإله فى رحلة حج طويلة لكى يمنح سكان الأراضى الأخرى هبات الحضارة والتمدن.

حكمت إيزيس مصر فى أثناء غياب أوزيريس بدلاً منه. وظلت تراقب الإله ست لأنها أحسّت أنه يُضمر الغيرة والحقد لأخيه أوزير، وكانت خائفة من أن يمكر ست للاستيلاء على عرش أخيه. والحقيقة أنه كان يخطط للإطاحة بأوزير، ولكنه كان حينها يؤجل ذلك، منتظرًا الفرصة المناسبة لكى يضرب ضربته. وعندما رجع أوزير من رحلته، تظاهر ست بالسعادة لرؤيته.

أخيرًا حانت الفرصة الكبيرة لست عندما خرجت إيزيس فى رحلة قصيرة ودعاه أوزير لحضور وليمة فخمة فى قصره. بمجرد وصوله إلى الحفل، تظاهر ست بالود وتجول بين الضيوف، مكررًا تفاخره بصندوق مُزين بأجمل الزينة كان قد صُنع توًا له (بهيئة التابوت). كان قد أمر بعض الخدم أن يُحضروا الصندوق (التابوت) إلى الحفل، وكل من فى الحفل، بما فيهم أوزير، انبهروا بالصناعة الفاخرة للتابوت.

وبعدما جرع جميع الحاضرين قدراً هائلاً من الخمر، نصب ست فخه. وقال: " إليكم هذا العرض، كل منكم سيأخذ دوره فى الدخول إلى هذا التابوت، ومن يتفق حجمه مع هيكل جسمه، فهو هدية منى له." كل واحد من الضيوف استلقى فى التابوت متمنيًا أن يوافق جسمه، ولكنه لم يناسب أحدًا بالشكل التام. وأخيراً دخل أوزير التابوت. وبالطبع لم يكن لديه فكرة أن التابوت كان قد صُمِّم ليوافق تمامًا مقاسات هيكله الإلهى. هتف أوزير بسعادة: " ياه! انظر يا ست، كم أنا مناسب تمامًا للتابوت. أراهن أنك عندما أعلنت تحديك لم تكن تتوقع أنه سيكون من حظى".

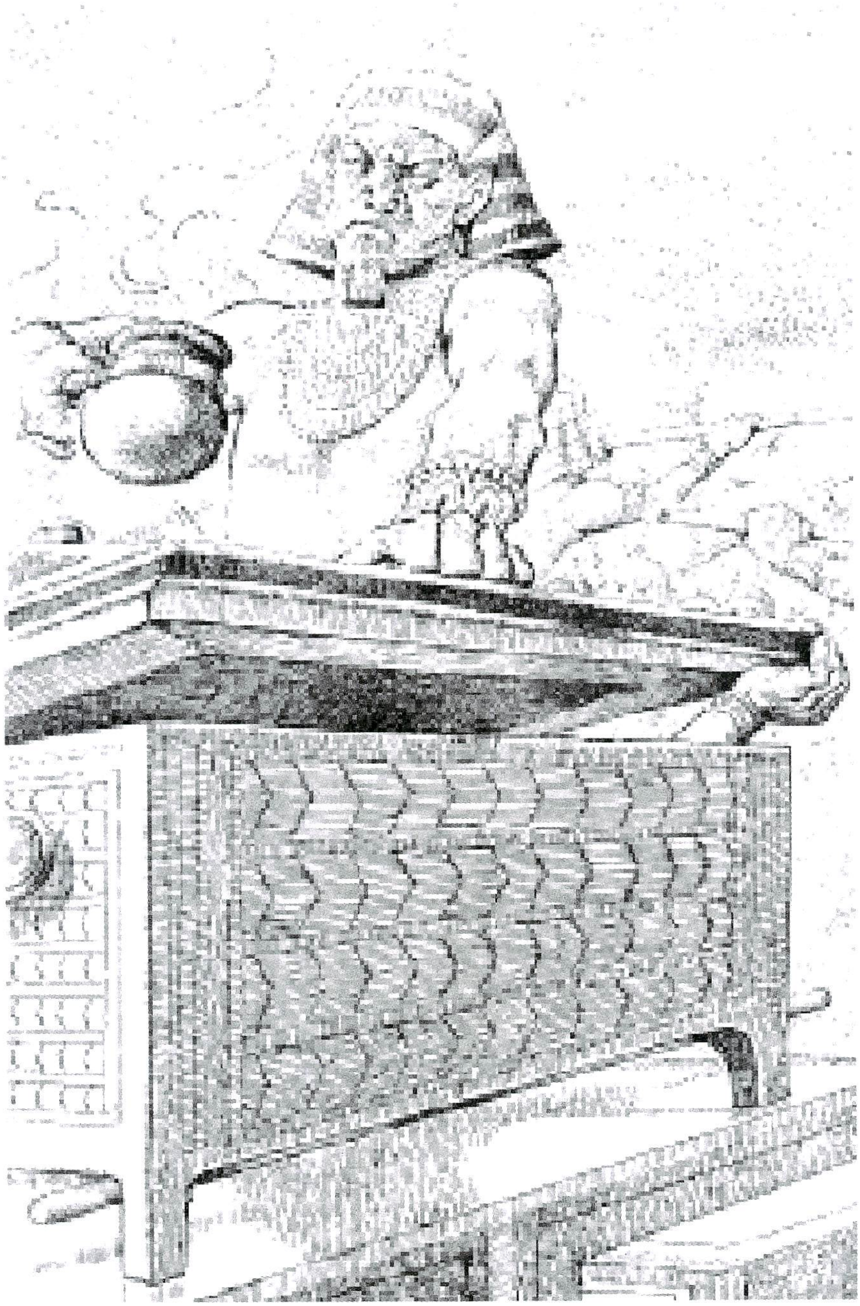
ابتسم الإله ست ابتسامة شريرة وقال: "على العكس، التابوت لك الآن يا أخى وإلى الأبد". ثم دفع ست غطاء التابوت فجأة وبقوة مبقيًا أوزير بداخله. وبينما كان خدام ست يحجبون الضيوف بعيداً، صب ست الرصاص المنصهر على التابوت محكمًا إغلاقه، قاتلاً بذلك أوزير المسكين. ثم حمل المتآمرون الصندوق الذى أصبح الآن تابوتًا إلى النيل وألقوه فيه. صاح ست مبتهجًا بنصره: "أخيراً، تخلصت من هذا المحسن عديم القيمة، وأستطيع أن أستمتع بما كان يجب أن يهبه رع لى من البداية". ثم أعلن ست نفسه الملك الجديد الحاكم على مصر.

إيزيس تبحث عن زوجها :

عندما عادت الإلهة إيزيس، علمت بالمأساة التى أوقعت بزوجها وبالمملكة التى أصبحت الآن تحت حكم ملك شرير. فصُدمت بطبيعة الحال ومُلئت بالحزن. بعد أن قصت شعرها ولبست الثوب الأسود على الطريقة المصرية للحداد، بدأت ايزيس رحلتها على الفور باحثة عن جثمان زوجها أوزير من أجل أن تقيم له جنازة مناسبة، لأن الموتى لا يرقدون بسلام إلا بإقامة شعائر جنائزية ضرورية لهم. بحثت إيزيس فى كل شبر من النيل حول المنطقه التى قام فيها المجرمون القتلة بالتخلص من الصندوق (التابوت)، ولكن بعد ذلك تيقنت من اندفاعه عبر النهر إلى مياه البحر. وبعد حساب تيارات أمواج

المحيط (الأخضر العظيم)(*) المتعارف عليها وجدت أنه سار نحو الشمال، فغادرت مصر وأقلّت عربة تجرها الخيول متجهة إلى بلاد فلسطين (التى تقع شمال مصر) باحثة عن تابوت عائم، سائلة كل من مرت عليه إن كانوا قد رأوا شيئًا كذلك.

(*) واج - ور أو الأخضر العظيم كان إحدى التسميات التى أطلقها المصريون القدماء على البحر المتوسط الذى دشن فيه المصريون خطوط ملاحية مهمة ربطت مصر مع ساحل بلاد الشام خصوصاً مع ميناء كبن (جبيل أو بيبلوس) الشهير فى لبنان الحالية . (المراجع)



وفى نهاية الأمر، علمت إيزيس أن ثمَّة صندوقًا (تابوت) كان قد طفا على الشاطئ قرب ميناء مدينة تسمى بيبلوس (جبيل)، حيث وصل ليستريح بين جذور هزيلة لشجرة صغيرة. كان جسم أوزيريس محتفظا بطاقات الخصوبة الهائلة حتى فى أثناء موته. فكانت المعجزة، ونمت الشجرة التى استقر عندها التابوت لأكبر حجم لها فى غضون ليلة، محتوية الصندوق فى جذعها الهائل الجديد. عندما سمع ملك المدينة بهذا الحدث الفريد، أمر بقطع الشجرة وإحضارها لتستخدم عموداً بالقصر. لم تكن لديه أية فكرة أن جثمان إله يرقد بداخل جذع الشجرة الهائل.

ولكن عندما علمت إيزيس بما يردده أهل المدينة عن الشجرة المعجزة، أدركت ما حدث. وبذكاء تنكرت فى شكل صانعة ملابس بسيطة، ونجحت فى دخول القصر. وهناك، اكتسبت ثقة الملك والملكة لدرجة أنهما طلبا منها القيام على رعاية طفلهما. كل ليلة، وعندما يخلد الجميع للنوم، كانت الربة تذهب إلى العمود الذى يرقد بداخله جسم زوجها ومحبوبها وتذرف الدموع فى صمت.

وبعد مرور فترة من الوقت، قررت أن تكشف عن طبيعتها المقدسة للزوجين الملكين. عندما علما أن الإله أوزير كان محبوساً بداخل عمودهما، أمرا على الفور بشق الجذع. وبداخله وُجد تابوت أوزيريس سليمًا وبه جثمانه. قدّم الملكان التابوت لأيزيس فحملته فى عربتها عائدة إلى مصر. وما بقى من العمود الذى احتوى جسم الإله الميت، ظل محفوظًا ومقدساً فى بيبلوس (جبيل) لقرون تلت.

البعث وقهر الموت :

حينما رجعت إيزيس إلى مصر، تجنبت بحرص المدن والأماكن المزدحمة حتى لا يصل لست أنها رجعت ومعها جثمان أوزير. وفى مكان خفِىّ منعزل، استخدمت بعض الأدوات المعدنية الحادة لتفتح التابوت. وحدقت مرة أخرى فى وجه زوجها الذى كان يبدو نائمًا فحسب. عانقت زوجها وهى لا تتحكم فى نشيجها، ثم أغلقت التابوت مرة أخرى. وظلت يقِظة لفترة تراقبه بصمت وتحميه من الأذى.

ذات ليلة، وعندما خرج الإله ست ليصطاد الطيور فى مستنقعات النيل، تعثرت قدماه فى التابوت الذى كانت إيزيس تخبؤه بين نباتات السَّمَار. على الفور أدرك الملك الإله الجديد، الذى كان يحكم رعيته بقسوة، أن الصندوق هو التابوت الذى يحوى جثة أخيه. أبصر ست إيزيس وهى نائمة بعيداً، ففتح التابوت بهدوء .. أخرج الجثة وأخذها بعيداً. ثم قال: " والآن سأدمرك تماماً، هذا ما كان يجب أن أفعله من قبل". ويغضب مزق جثة أوزير إلى قطع متعددة. وبعدما فعل هذه الفعلة البشعة، أمر أعوانه أن يُخَبِّؤُوا كل قطعة فى مكان مختلف فى أرجاء مصر. وكان متأكداً أن إيزيس لن تجد فرصة للعثور على القطع لجسد الإله أوزيـــر جميعها.

لكن ست استخفَّ بقوى أخته للمرة الثانية. فقد بحثت الإلهة إيزيس بلا هوادة عن القطع المتناثرة لجثة زوجها وكان ذلك بمساعدة نفتيس زوجة ست (التى طالما أحبت إيزيس وأوزير أكثر من حبها لزوجها الشرير). وبعد سنوات عديدة، عثرت المرأتان على جميع القطع المخبأة، واستطاعت إيزيس بعد عناء أن تعيد ترتيب القطع معاً. وقد نجحت أن تعيد أوزير للحياة مرة أخرى لليلة واحدة مستعينة بكل التعاويذ السحرية التى كانت تتذكرها. فى تلك الليلة أفضى الاثنان عن حبهما الذى لا يعرف الموت. وحملت بطفل لهما؛ هو حورس.

فى الصباح التالى غادر الإله أوزير الأرض للأبد. ورغم أنه ساعتها مات حقاً؛ فإنه تجاوز الموت، فقد قام العظيم رع بتنصيبه سيداً للعالم السفلى. ومنذ ذلك اليوم وصاعدا لم يخش الموتَ أحدٌ من المصريين، مؤمنين أن أرواحهم سوف تلقى الرعاية الكاملة فى مملكة السلام، التى يحكمها أوزير.

أسئلة وأجوبة

س: على الرغم من أن أوزير وإيزيس كانا إلهين؛ فإنهما كانا يخضعان لسلطة أعلى، لمن كانت هذه السلطة؟

ج: رع إله الشمس.

س: لماذا كان الإله ست يكيد ضد أخيه؟

ج: أحس ست بالغيرة لأن رع إله الشمس جعل أوزير ملكًا على مصر، وكان ست يريد هذا المنصب لنفسه.

س: كيف خدع الإله ست أوزير لكى يدخل الصندوق (التابوت)؟

ج: كان ست قد وعد بأن يعطى الصندوق هدية لمن يناسب حجم الصندوق مقاسات جسمه تمامًا.

س: كيف نمت الشجرة التى لجأ تابوت أوزير إليها بشكل ضخم فى ليلة واحدة ؟

ج: كان لأوزير قوة التخصيب والإنماء، لذلك كان لديه القدرة على إنماء النباتات والحيوانات بطريقة سريعة وصحية.

س: فى قصة بعث أوزير، ما هما العلامتان الرئيسيتان لقدرة أوزير على تجديد الحياة؟

ج: أولاً، أعيد ميلاده بعد موته. ثانيًا، استطاع أن ينجب ابنًا وهو حورس.

س: ما هو الدور الذى لعبته إيزيس فى مساعدة زوجها لتحقيق حياة جديدة؟

ج: أولاً، كـانت إيزيس لديهـا ولاء ومـثـابرة. لم تفـقـد الأمل قط فى العـثور على أوزيريس، وعندمـا وجدت جثمانه، قدمت له الرعاية بكل صـبر لتتأكد أن أجزاءه جمعت بعد أن مزقه الإله ست. بالإضـافة إلى ذلك، فإن قوة حبها لأوزير ساعدته أن يتمتع مرة أخرى بحياة مؤقتة.

تعليق الخبراء

هنا يعلق ليونارد ليسكو Leonard Lesko الأستاذ بجامعة براون على بعض الأفكار غير الدينية فى أسطورة قتل وبعث أوزيريس فيقول:

"على مستوى معين من الفهم، يمثل الصراع بين أوزير وست صراعًا فى الطبيعة، بين وادى النيل الخصيب (كمت، الأرض السوداء) وبين الصحراء الجرداء (دشرت، الأرض الحمراء)، أو بين الفيضان النافع الثابت للنيل (أوزير) وبين العاصفة البغيضة المباغتة (ست). على مستوى آخر من الفهم انعكس فى نصوص تأتى فيما بعد، يمثل الخلاف صراعًا بين وريثين يتنافسان على ما تركه أبوهما، وهو الأرض، والذى يرمز بوضوح إلى الصراع بين ملوك الشمال والجنوب للسيطرة على الدولة (منذ أن كانت مصر فى يوم من الأيام مقسمة ما بين مملكتين عليا وسفلى قبل أن يوحدهما الملك مينا نحو ٣٠٠٠ ق. م.)(٢).

تتمثل الدلالة الدينية والروحية لأسطورة أوزير لعامَّة المصريين القدماء فى أن القصة تبشر بالتجديد وفى وجود دورة أخرى للحياة بعد الموت، بخاصة إنكار سطوة الموت والإقبال على الحياة الأبدية. هذا ما يوضحه فيليب ديركين Philippe Derchain الأستاذ بجامعة كولونيا حيث يقول:

"من يتشبه بأوزير فقد شبه نفسه بقوى التجدد فى الكون ... فلا يبعث الميت لأن له ابن حى على وجه الأرض، ولكن لأنه اندمج فى الإطار المحدد لعلاقة الابن بأبيه (كما تبين فى العلاقة بين أوزير وحورس فى الأسطورة)... كما يصور قدر البشر على أنه ظاهرة دورية (تتكرر باستمرار) يجد المرء خلاصه فيها. بالإضافة إلى ذلك، يمكن لكل ظاهرة دورية أو متكررة أن تكون نموذج أسطورة

لإنكار الموت (كما اجتاز أوزير الموت فى أسطورته)، ذلك مثل المسار اليومى للشمس. كان الوصول إلى قارب الشمس والإبحار بها امتياز للملك وحده فى الأصل... بعد ذلك، كانت الشمس تأخذ أى شخص على متنها، لذلك كان شائعًا أن أطلق الناس عليها "قارب الملايين". وكان هذا أحد العقائد التى شكلت أساس كتاب الموتى[٣]".

وقد علق الصحفى والمؤرخ المعروف بول جونسون Paul Johnson على المظاهر التاريخية لأسطورة أوزير فقال:

"كان للقصة على الأرجح أصول تاريخية وثيقة الصلة بالتكوين الفعلى لمصر، ولكن فى العقيدة والشعائر المصرية كانت القصة تمثل دورة الحياة المتجددة، عن طريق صراع حورس الملك مع قوى الشر فى أثناء حياته وتحوله إلى أوزير الخالد فى موته. فى الأصل كان الفراعنة فقط هم الذين يعيشون هذه الأحداث المثيرة، ولكن ابتداء من الفترة المتأخرة من عصر الدولة القديمة، امتد الحق فى مكافحة ست والخلود مع أوزير تدريجيا لكل المصريين. وقد صاحب تعميم هذه القصة التطور التاريخى لوعى الفرد، وهذا هو أعظم هدية روحية من مصر للبشرية، كما كان مصاحبًا لفكرة المحاكمة الأخيرة للجميع التى يترأسها أوزير[٤]".

(٣)

إيزيس والعقارب السبعة



مقدمة

نظر المصـريون إلى الإلهـة إيزيـس ليس فـقـط على أنهـا أخت أوزير وزوجـتـه الوفـية، ولكن أيضًـا باعتـبارها نموذجًا للأم المخلصـة التى كانت ترعى وتحمى ابنـها حورس، وبالتالى كل الأطفال. وقد كسبت إيزيس شهرتها أيضًا باعتبارها معالجة قوية تستطيع أن تعالج الناس باستخدام السحر. كما يوضح العالم ريتشارد باتريك Richard Patrick فى قوله: " كان سحرها متحدًا مع حكمة تحوت (إله الحكمة والكتابة) وكان يمنح للبشر باعتباره طريقة - خصوصًا - فى العلاج[1]". ومن ثم، كانت تُروى العديد من القصص الخاصة - بها مرارًا لكى تُعلّم الناس تعاويذ الإشفاء الخاصة - التى كانوا يحتاجونها لعلاج أمراض مزمنة متعددة ابتداء من أنواع الحمى إلى لدغات الحيوانات.

عادة كانت تجمع هذه الأنواع من العلاج فى صحائف طبية (تكتب على البردى)، وعندما يمرض شخص ما كان المعالج يرجع إلى الصحيفة المناسبة. فمثلاً، كان المريض بالحمى أو الحرق يحل مؤقتًا محل حورس ابن إيزيس، فى حين يمثل المعالج إيزيس. كان المعالج يتلو التعويذة المحددة على سلطانية تحتوى على خليط من اللبن البشرى والصمغ وشعور القطط ثم يدهن هذا المرهم الخشن على جسم المريض، والذى كان غالبًا يشعر ببعض التحسن[2].

وتجمع الأسطورة التالية لإيزيس والعقارب السبعة بدقة بين هاتين الصورتين للآلهة: الأم، والمعالجة بالسحر. والسبب فى أن العقارب فى القصة كانت سبعة وليست بأى عدد آخر، ربما أن رقم سبعة له دلالة صوفية فى ثقافة كثير من المجتمعات القديمة بما فى ذلك المجتمع المصرى. كان المصريون يرون أن الرقم سبعة له فعالية وقوة هائلة.

(ولذلك، ظهر هذا الرقم فى كثير من الوصفات الطبية؛ فمثلاً كانت التعويذة المثالية لعلاج الصداع تتضمن عقد سبع عقد) . ويعتبر المصدر الرئيسى للقصة هو لوحة ميترنك، وهى لوحة حجرية تم اكتشافها فى الإسكندرية عام ١٨٢٨م . كما تتضمن النقوش على لوحة ميترنك أيضاً حلقات ومشاهد أخرى عن حياة آلهة متعددة[٢].

الشخصيات الرئيسية فى هذه القصة هم : إيزيس، وتحوت إله الحكمة والكتابة، والعقارب والسبعة، وامرأتان مصريتان.

إيزيس والعقارب السبعة

إيزيس تفر من ست :

بعد أن قتل ست أوزير، أنجبت إيزيس ابنها حورس، وإله الشمس رع جعل أوزير حاكما على العالم السفلى، وبدأت إيزيس تنسج كفنًا تلف فيه مومياء زوجها. على الرغم من أن روح أوزير وقتها كانت تحكم خلف الأفق، كان جثمانه الهامد لا يزال يحتاج أن يجهز للدفن ويدفن. كان الطفل حورس ينام فى مهد بجانب أمه وهى تعمل. ثم اقترب الإله تحوت إله الحكمة من الأم المستجدة وحذرها: " خذى حذرك يا إيزيس. ست يبحث عنك وعن ولدك. أخاف أن يكون ناويًا على قتلكما معًا".

فردت عليه: " لا بد أن أحمى ابنى مهما كلفنى ذلك. هذه هى مهمتى الأولى بما أننى أمه. ولكن ماذا أفعل؟ وأين أختبئ؟ فإن ست يعرف كل حجر وكل كهف وكل شجيرة لأميال حولنا. ومن المؤكد أنه سيجدنا".

فقال تحوت لإيزيس ألاّ تيأس. وأشار عليها بأن هناك مستنقعات معينة لا يعرفها ست تقع بعيداً إلى الشمال فى دلتا نهر النيل، ولو اختبأت هى وحورس هناك، فلن يستطيع ست أن يعثر عليهما. قال تحوت مشجعًا: " اذهبى هناك، ربى حورس جيداً، وعندما يبلغ أشده، يستطيع أن يرجع ليثأر لأوزير ويأخذ العرش من ست".

اتبعت إيزيس تعليمات الإله تحوت. وقبل أن يتركها، ترك معها سبعة عقارب ضخمة لكى يصحبوها ويحموها وابنها فى رحلتهما المحفوفة بالمخاطر. وكان يمشى أمام إيزيس ثلاثة من العقارب هم : بتيت، وتتيت، وماتيت وأعينهم يقظة متحفزين لـ (ست) أو لأية تهديدات هناك؛ بينما كان اثنان آخران من العقارب هما مستيت ومستتيف، يسيران تحت عربة إيزيس، أما الاثنان الأخيران تيفن وبيفن، فكانا يحرسان مؤخرة الموكب. ولحسن الحظ، لم يقابل المسافرون أية عقبات فى أثناء الرحلة.

انتقام العقارب:

أخيرًا، اقتربت الجماعة من منطقة مستنقعات الدلتا التى اختارها لهم الإله تحوت مكانًا للاختباء. فى ذلك الوقت، أصبحت الأم الحنونة التى لم تزل تحتضن طفلها، منهكة وفى حاجة ماسة إلى الطعام والراحة. وصلوا إلى قرية، وهناك اقتربوا من منزل فخم يبدو عليه العظمة أملين أن يعرض عليهم صاحب المنزل الضيافة. فى لحظة وصولهم، كانت صاحبة المنزل، وهى امرأة ترتدى ثوبًا فاخرًا، تقف فى مدخل البيت. ولكن عندما وقعت عيناها على العقارب السبعة، فزعت ودفعت الباب بعنف رافضة أية مساعدة للأم وطفلها.

بعد خيبة الأمل والبؤس التى حلت بها، قررت إيزيس أنه ليس لديها سوى أن تستأنف سيرها نحو المستنقعات. وكانت قد سارت لبضعة مئات من الأقدام، حينما فاجأتها ابنة صياد وهى تقترب منها. لم تتعرف البنت على إيزيس الربة، ومع أنها ظلت تنظر إلى العقارب نظرة حذرة؛ فإنها لم تفر بعيدًا عنهم. قالت البنت بصوت حنون : "لا أستطيع المساعدة ولكننى ألاحظ على وجهك الجوع والتعب .. أستأذنكِ أن تأتى معى إلى بيتى لأعطيكِ بعض الطعام لك ولولدك". ثم اقتادت إيزيس إلى كوخ ضئيل ذى غرفة واحدة، وهناك أعطتها معظم الطعام القليل الذى كانت تمتلكه.

فى الوقت نفسه، كانت العقارب غاضبة من السيدة الغنية التى رفضت بوقاحة أن تساعد إيزيس وابنها. لذلك قرروا أن يلقنوها درسًا قاسيًا. رفع تيفن ذراعه اللادغ وفرّغ رفاقه الستة سمَّهم عليه. ثم زحف خلسة من تحت باب المرأة الغنية ووصل إلى المكان الذى ينام فيه ابنها الصغير فلدغه. وبمجرد أن دخلت أم الطفل الغرفة، كان تيفن قد فرّ بعيدًا.

حملت الأم ابنها ذاهلة وجسمه مترنح ومنتفخ وخرجت فى الشوارع باحثة بيأس عن المساعدة. ولكن كان الكل خائفًا من العقارب وسمها، وكل سكان المدينة أغلقوا أبوابهم فى وجهها، تماما مثلما فعلت آنفًا مع أم أخرى تبحث عن المساعدة لها ولابنها. انهارت الأم على الأرض وهى تجهش بالبكاء حاضنة جسم ابنها بين يديها.



قوة السحر عند إيزيس :

علمت إيزيس لاحقًا بما حدث. وعلى الرغم من الوقاحة التى عوملت بها؛ فإنها لم تتحمل أن تدع طفلاً بريئًا يموت وتعانى أمه بشدة. لذلك ذهبت إلى المرأة الغنية وقالت: " لا تخافى، أنا الربّة إيزيس. أعطنى ابنك وسوف أعالجه." ناولت الأم طفلها بسرعة وهى لا تمتلك نفسها من الرعب، فحملته إيزيس بحنان. بدأت الربّة حينئذ تتلو تعاويذ متنوعة، ذاكرة كل أسماء العقارب، ومسيطرة بقوتها عليهم وعلى سمومهم.

استحوذ سكون رهيب على القرية للحظات جعلت كل شخص ينظر خلسة من بيته لكى يشاهد الأحداث المهيبة التى تتجلى فى الشوارع. فى البداية ظل جسم الصبى مترنحًا وشاحبًا. ولكن بدأ لونه يعود شيئًا فشيئًا وأصبح تنفسه منتظمًا وفتح عينيه. وعندما تعرّف على والدته مدّ يده إليها، فسلّمته إيزيس لأيدى أمه. شكرت المرأة الغنية الربّة، ولكنها أحست أن الكلمات لا تكفى لتكافئ الخير الذى قدمته إيزيس. وبلا تردد، رجعت الأم إلى بيتها، وجمعت جزءًا كبيرًا من ذهبها ومجوهراتها وثروتها. حملت هذا الكنز إلى كوخ الصياد الفقير ومنحته للبنت الصغيرة المسكينة والتى كانت قد ساعدت الآلهة من قبل.

وفى النهاية، أصبح كل شىء على ما يرام لكل من فى القصة: استأنفت إيزيس رحلتها لكى تتجنب ست وتربى حورس. تمتعت ابنة الصياد بالراحة المادية التى لم تكن تعرفها من قبل. والمرأة الغنية، التى أصبحت الآن إلى حد بعيد أقل غنى من ذى قبل، تعلمت القيمة الحقيقية للعطف والضيافة.

أسئلة وأجوبة

س: لماذا احتاجت إيزيس أن تغادر وطنها؟

ج: لأن تحوت إله الحكمة حذرها من أن الفرعون الشرير ست ينوى قتلها هى وطفلها الصغير حورس.

س: إلى أين نصح تحوت إيزيس أن تذهب؟

ج: نصحها أن تختبئ فى مستنقعات تقع على مقربة من دلتا نهر النيل.

س: لماذا أعطى تحوت العقارب إلى إيزيس؟

ج: أعطاهم توت لها لكى يحموها وابنها من الخطر فى أثناء رحلتهما.

س: لماذا كانت العقارب سبعة فى الأسطورة ولم تكن خمسة أو تسعة أو أى عدد آخر؟

ج: رقم سبعة بالنسبة للمصريين (مثل الكثير من الشعوب القديمة) له دلالات روحية وقوى - خاصة -.

س: لماذا رفضت المرأة الغنية أن تساعد إيزيس وطفلها؟

ج: لأنها كانت خائفة من العقارب السبعة.

س: كيف دخل العقرب تيفن إلى منزل المرأة الغنية ، وماذا فعل بمجرد دخوله؟

ج: زحف تيفن من تحت الباب. وعندما أصبح بالداخل، لدغ ابن المرأة الذى كان نائمًا فصار على شفا الموت.

س: ما هى القوى الخاصة – التى عرضتها إيزيس فى هذه القصة؟

ج: كانت قوى الإشفاء ، والقدرة على العفو والرحمة.

س: كيف اكتسبت إيزيس القوة للتغلب على العقارب لكى تشفى الصبى؟

ج: لقد سمّتهم [نادت على كل واحد منهم] واحداً واحداً. ويعتقد كثير من شعوب العالم القديم، بما فيهم المصريون، أن الآلهة يستطيعون أن يخلقوا شيئًا أو يفرضوا قواهم بطرق مختلفة من خلال مجرد التلفظ ببعض الكلمات.

س: ماذا تعلمت المرأة الغنية بعدما رأت من عطف إيزيس؟

ج: تعلمت القيمة الحقيقية لكرم الضيافة. وقد توصلت إلى أنها لو كانت طيبة مع إيزيس واستضافتها من البداية، لما كانت تسببت فى انتقام العقارب منها ومن ابنها البرىء. ويعد الدرس المستفاد من القصة أن الإحسان يقابله الإحسان، بينما تجلب المعاملة السيئة العداء والمشاعر البغيضة.

تعليق الخبراء

كانت إيزيس النموذج المصرى للأم المثالية الموجودة فى كثير من الأساطير لشعوب مختلفة والتى يمكن لأية امرأة فى أية ثقافة أن تتأسى بها. كما يقول عالم الأساطير دونالد ماكينزى Donald Mackenzie:

" كان نموذج الأم المثالية ربّة عذراء تمثل جنس النساء (أعنى صفات المرأة التقليدية)... وقد تنوعت خصائص الأمهات الربّات المتعددات والمتنوعات فى مختلف المواقع ... كانت واحدة تمثل روح الأرض، وثانية تمثل روح الماء وثالثة تمثل روح الهواء أو السماء ... وقد جمعت إيزيس الشهيرة كل الخصائص الجوهرية لتلك الأمهات المثاليات، واللاتى كن يعتبرن (فى عيون المصريين) صوراً مختلفة لها(٤)".

لا يوجد أحد خبير بإيزيس أكثر منها نفسها، فقد جاءت صورة ربّة مثلها فى رواية تسمى "الجحش الذهبى" كتبها الكاتب الرومانى أبوليوس Apuleius فى القرن الثانى الميلادى. ومنذ عصره، انتشر تقديس إيزيس فى أنحاء حوض البحر المتوسط وذاعت شهرتها إلى أبعد حد فى كل من اليونان وروما. وقد رآها الشعب الإغريقى والرومانى ربّة عالمية على نطاق واسع من الإمكانيات والقوى المطلقة. فى هذا الاقتباس من الرواية، بعد أن ينتهى البطل من الصلاة لإيزيس، يراها تتمثل أمامه رأى العين وتقول :

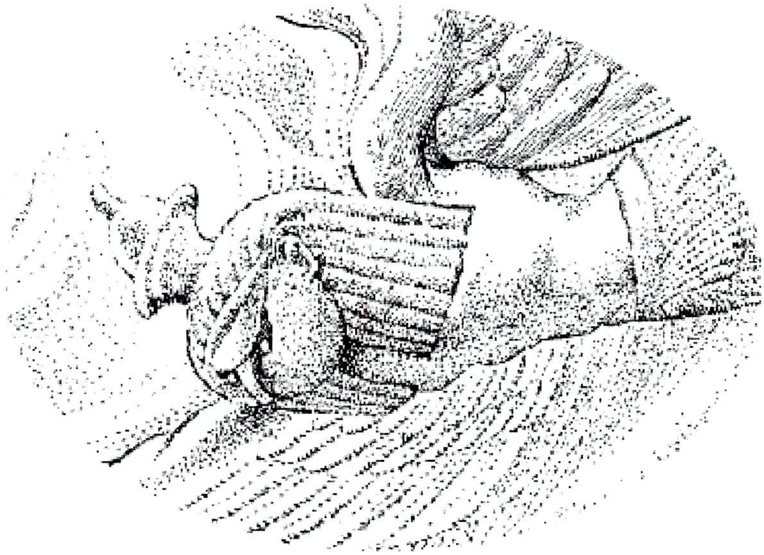
"هاأنذا يا لوسيوس ... أيقظتنى صلواتك، أنا أم عالم الطبيعة، سيدة كل العناصر، ولدت بداية فى مملكة هذا الزمن. أنا أنبل الآلهة، ملكة الأرواح المسافرة، أول المقيمين بالسماء، أنا التجسيد الوحيد لكل الآلهة والربات. أحكم بإيماءاتى قمم السماء الشاهقة، نسائم البحر العفية، والصمت الحزين لساكنى الجحيم (أعنى من فى العالم السفلى). العالم بأسره يعبد هذه الألوهية الوحيدة فى أشكال ومسميات متعددة، ولكن المصريين يدعوننى باسمى الحقيقى، وهو الملكة إيزيس(٥)".

يوضح ليونيل كاسون Lionel Casson، أحد أعظم علماء المجتمعات القديمة فى القرن العشرين الميلادى، السبب فى شهرة إيزيس لهذا الحد بين الرومان ورعاياهم من الإغريق، فيقول:

"كان القرن الأول قبل الميلاد – وبعض القرون التى تلته – عصرًا يقتتل فيه الناس بحثًا عن نماذج دينية تستطيع أن تمنحهم الأمل والراحة. قصة إيزيس .. الزوجة التى استطاعت بإيمانها وحبها الراسخين، أن تجعل بعث زوجها أوزير ممكنًا .. أثبتت أنها تمتلك جاذبية عالمية. وقد اكتسب خلود التقديس لإيزيس وأوزير تأكيد كثير من الأنصار فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية بطول عهدها واتساع نطاقها، من الشرق الأدنى القديم إلى بريطانيا البعيدة(٦)".

(٤)

انتقام حورس



مقدمة

يعتبر موت أوزيريس ثم بعثه سيداً للعالم السفلى نقطة بداية لما يسمى فى بعض الأحيان أسطورة المُلك. توضح القصة سبب تحول فرعون مصر إلى مَلك إلهٍ بعد موته. ثم يحكى الجزء الثانى من أسطورة المُلك قصة حورس ابن أوزير الذى أصبح فرعونًا أو على الأقل وصل إليه فى أثناء حياته وحكمه لمصر.

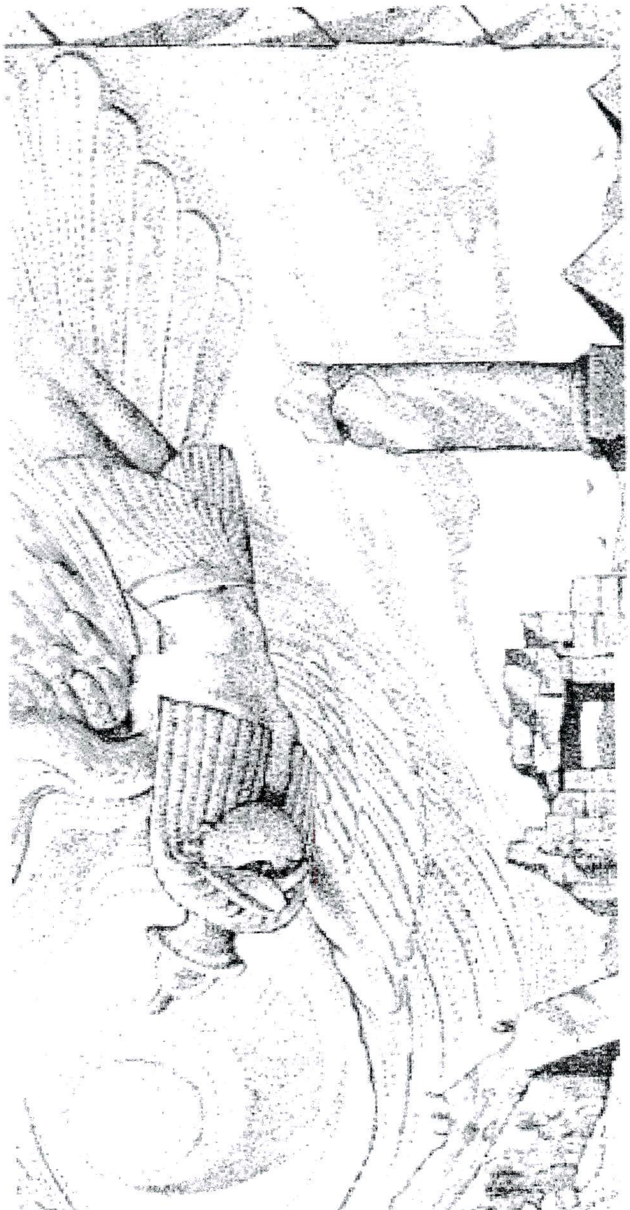
أصبح حورس معروفًا باسم "المنتقم" لأنه فى قصته المشهورة، والتى قيلت هنا، يثأر لموت أبيه أوزير. أيضًا كان حورس عادة يسمى "الأعلى" لأن الناس كانوا فى الغالب يصورونه إلها سماويا متخذا شكل صقر محلّق فوق الأرض. كما نرى التماثيل والرسوم المصرية الباقية حتى الآن تصوره على أنه طائر عظيم يرتدى تاج مصر الأبيض (الآتف)، والذى يمثل اتحاده مع الفرعون أو الملك الإله الحى.

وعلى مر القرون، اتخذ حورس كثيراً من الصور (المظاهر أو الهويات). هذا لأن المتعبدين فى مناطق وأزمنة مختلفة فى مصر كانوا يؤكدون على خصائص مختلفة فى شخصيته. ولكن هويّته الأكثر أهمية كانت كونه ابن أوزيريس. يقول العالم لويس سبنس Lewis Spence: كان حورس بن إيزيس وأوزيريس، له من الأهمية ما جعله يختزل كل خصائص الصور الأخرى لحورس الإله[1]". ومن هذه الوجهة، كان حورس أحد عناصر ما عرف بعد ذلك باسم " ثالوث أبيدوس" والثالوث [Triad] هو مجموعة الثلاثة المقدسة وهم أوزير والزوجة الإلهة إيزيس وابنهما حورس[*]. وأبيدوس مدينة تقع على النيل شمال غرب طيبة، ويحوى طلل معبدها الرئيسى بعضًا من أهم التعبيرات الفنية التى تترجم أحداث أسطورة حورس الرئيسية.

(*) جسد المصريون آلهتهم أحيانا بمفهوم يقرب لمفهومهم البشرى من إله زوج وإلهة زوجة ينتج عن زواجهما ابن مثلما هو الحال هنا لأوزير وإيزيس والابن حورس. وتكرر مثل هذا الثالوث فى عقائد حضارات أخرى تالية خصوصًا ما نعرفه على سبيل المثل من حضارات جنوب غرب شبه الجزيرة العربية (اليمن) المعروفة بالسبئية والمعينية والقتبانية فى الألف الأول قبل الميلاد. (المراجع)

حورس فى أسطورته الرئيسية، والتى يأخذ ست خلالها باختصار شكل فرس النهر، كان أيضًا يصوَّر بشكل بارزٍ فى فن المدن المصرية الأخرى وثقافتها. على سبيل المثال، فى إدفو القديمة على الضفة الغربية للنيل جنوب طيبة بعدة أميال، كان يقام مهرجان دينى سنوى – مهرجان النصر– فى شكل مسرحية. كان الممثلون يشخّصون ست على شكل فرس نهر يطعنه حورس وإيزيس بالحراب. كان ست – فى شكل فرس النهر– يتبرعم أكثر وأكثر وفى النهاية كانت الأعضاء والأطراف المنبثقة منه يضحى بها لآلهة متعددة. وفى ختام المهرجان، يأكل المتعبدون كعكات فرس النهر، يرمزون بذلك إلى الدمار الكامل لست.

يظهر بالأسطورة شخصيات أخرى كثيرة بجانب حورس وأبويه أوزير وإيزيس. من بينهم كبير الآلهة إله الشمس آمون، وتحوت إله الحكمة والكتابة، ونيت وهى ربة خالقة قديمة كانت تُعبد فى دلتا النيل، ونيمتى سائق المعدية، وحتحور الربّة السماوية التى أصبحت بعد ذلك مرتبطة بحورس عن قرب، وست أخو أوزير وإيزيس، والذى كان من قبل هاجم أوزير وقتله.



انتقام حورس

حورس يتحدى ست :

بعد أن قتل أوزير واعتلى عرش مصر، توقع الإله ست أن يبقى فى الحكم عمراً طويلاً. ولكن اتضح أنه كان مخطئًا بشدة. لم يكن ست يعمل حسابًا لمولد حورس، أو لم يكن يتوقع أن ابن أخيه أوزير وأخته الإلهة إيزيس كان سيأتى ليتحداه على حكم وادى نهر النيل. فى الواقع، كان ذلك بالتحديد ما سعى إليه حورس عندما أصبح يافعًا. فكانت البداية، أن استدعى أعضاء التاسوع المقدس بالإضافة إلى بعض الآلهة الآخرين، وطلب منهم أن يعقدوا محاكمة للنظر فى شكواه المتعلقة بالعرش الذى كان يومًا من الأيام ملك أبيه. كان من بين هؤلاء الآلهة أمه إيزيس، التى كانت تحمى ابنها من ست عبر السنين، وكانت تشاهد ابنها بصبر وهو ينمو ليصبح إلهًا ناضجًا وأنيقًا.

وقف حورس أمام الآلهة، وروى القصة كيف أن ست ذبح أباه الإله أوزير بوحشية واغتصب المُلك دون حق. بعد ذلك، طلب حورس محدداً دعواه، أن يُسمح له بأخذ مكانه الطبيعى على العرش. كان كل الآلهة متأثرين بقوة أسلوبه الخطابى. وقَبِل كثير منهم الدعوى على الفور، متفقين على أن ابن الملك هو الوحيد الذى له الحق فى أن يرث لقب أبيه وأملاكه. هتف تحوت الحكيم قائلاً: " فى الواقع،... إن طلب حورس للعرش من حقه، حتى لو طلبه مليون مرة فسيكون له نفس الحق كل مرة" . كانت إيزيس مبتهجة جدا لسماع هذا التصريح حتى إنها أمرت رياح الشمال أن تحمل الأخبار الجيدة مباشرة لأوزير فى العالم السفلى.

فجأة، ساد الاجتماع سكون مهيب. حيث وقف رع، إله الشمس، وست الذى كان وحده بين الآلهة يرفض طلب حورس للعرش، لكى يتحدثا. قال رع: "أشعر بالشفقة

على حورس المسكين، من العار أن يفقد أباه والمُلك. ولكن عندما أنظر إلى الاثنين المطالبين بالعرش، أرى بوضوح أن ست أكثرهما قوة، وأنا أومن أن الأقوى لا بد أن يكون هو الملك". كان كل الحاضرين مندهشين بشدة لتعليقات رع. ومع ذلك، لم يندهشوا أكثر عندما عرض ست هذا التحدى: " لو يريد حورس أن يتحدانى، دعوه يقاتلنى أمام جمع الآلهة. وبسهولة سوف أدمر هذا المغرور التافه".

محاكمة نيت:

" والآن انتظروا لحظة واحدة"، قال الإله تحوت معترضًا: " أنا أقول إن دعوى ست غير شرعية، بما أن الوريث الشرعى لأوزير هو حورس ولا يزال حيا ويقدم طلبه الشرعى أمامنا الآن". ولكن حكمة تحوت لم تستطع أن تُثنى رع عن دعمه لست. وأدى هذا الخلاف إلى مأزق دام ثمانين عامًا كاملة. وفى النهاية، وافق الآلهة أن يجعلوا تحوت، الكاتب المقدس، يكتب خطابًا إلى نيت الربّة الأم، يطلبون رأيها. ولم يمر وقت طويل حتى وصل رد نيت حيث كتبت: " إن السماح لست أن يحتفظ بالعرش سُبَّة فى وجه الحق، لا بد أن تعطوا لحورس ما هو من حقه وإلا ستنهار السماء على الأرض". ولكن على الرغم من أنها انحازت لحورس؛ فإنها رأت أن ليس من العدل ترك ست بلا شىء. فكانت نصيحتها: " أعطوا اثنتين من بنات رع، عنات وعشتارت، زوجتين لست، وسوف يعوضه ذلك عن خسارته".

اعتقدوا جميعهم تقريبًا أن اقتراحات نيت عادلة. ولكن اعترض الإله رع مرة أخرى. وبدأ إله الشمس الناقم يسب حورس فى وجهه معتبرًا أن لديه كل الحقوق فى أن يبسط نفوذه لأنه الإله الرئيس. قال بغلظة: " أنت لا شىء سوى طفل ضعيف مثير للشفقة، كيف جاءت لك الجرأة أن تطالب بعرش دولة عظيمة مثل مصر؟" وقد أغضبت هذه التعليقات المليئة بالشتائم الآلهة الآخرين. فتحدث بابا الإله المتجسد برأس القرد، إلى الجميع عندما قام لرع وقال: "إن ضريحك أجوف".

جاءت كلمات الإله بابا صادمة لرع، لأنه يعلم أنها تعنى أن لا أحد سوف يتخذه بجدية إله الشمس العظيم بعد ذلك. فجأة، ومثل طفل صغير يعبس عندما لا تفلح طريقته، رجع الإله رع إلى خيمته ورفض أن يخرج أو حتى يتحدث لأى شخص، وهذا أربك فى المقابل باقى الآلهة. حيث خافوا أن يوقف رع قاربه عن الإبحار فى السماوات، وهذا بلا شك سوف يخل بتوازن الطبيعة.

تهديدات ست، ومكر إيزيس :

لحسن الحظ، فكرت ابنة أخرى لرع وهى الآلهة حتحور، فى طريقة تعدل بها حالة أبيها المزاجية. فبدأت ترقص وتغنى وتتجرد من ملابسها. بدا هذا التصرف فى هذه اللحظة الحرجة، سخيفا جدا مما جعل كل الحاضرين يضحكون ويصفقون. سمع رع هذه الفوضى، فخرج من خيمته ليرى ما يجرى، فلم يملك إلا أن ضحك هو نفسه. استعاد رع مزاجه، فدعا حورس وست ليتقدما للأمام ويقدما باحترام مطالبتهما المُلك مرة أخرى.

فى هذه المرة، ومع ذلك، ازداد الجدال سخونة بشكل كبير. فى البداية، ادعى ست أنه كان الاختيار الشرعى، لأنه هو الأقوى، كما قال رع من قبل. قال ست: " كل يوم عندما يبحر رع بقاربه خلف الأفق، يسافر فى العالم السفلى. أحيانًا يأتى الإله الثعبان الشرير، أبوفيس، ليهاجم القارب ويحاول قتل رع. أنا وحدى، حامى الآلهة، أستطيع أن أحميه بصولجانى العظيم".

اضطر كثير من الآلهة إلى الاعتراف أن الإله ست له حق ما. ولكن، استأنف تحوت جداله فى أنه سيكون من العدل أكثر أن يمنح العرش لحورس. بالإضافة إلى ذلك، ألقت الإلهة إيزيس حديثًا حرّك العواطف لصالح ابنها فجعل الآلهة يتعاطفون مع حورس. اشتاط ست غضباً وزأر قائلاً: " أنتم أيها الجبناء المولولون، سوف أعرّفكم من هو أقوى إله على الإطلاق، إذا رفضتم أن تنصاعوا لأوامرى، سأستخدم صولجانى

لأسحق موتًا واحدًا منكم كل يوم، حتى تُذعنوا. وفوق ذلك، لن أعترف بقرار أية محكمة تشارك فيها إيزيس".

قال رع: " حسنا جدا، سوف ننقل إجراءاتنا ونستأنف مناقشة القضية فوق إحدى جزر النيل. وسوف آمر نمتى سائق المعدية ألا يسمح لأى امرأة تشبه إيزيس بالعبور إلى الجزيرة". ثم بدأ الآلهة فى نقل محكمتهم كما أمر رع. ومع ذلك، فإن إيزيس، وقد استطاعت منذ سنوات أن تجد جثمان زوجها على بعد مئات الأميال من الوطن، كانت من الذكاء ما جعلها لم تكترث بهذا الفعل. بكل سهولة، تنكرت فى زى امرأة عجوز وعرضت على نمتى سائق المعدية خاتمًا من الذهب على أن ينقلها إلى الجزيرة. وقد فعل ما أمرته بكل حماقة.

بمجرد أن نزلت على الجزيرة، غيرت إيزيس من مظهرها مرة أخرى، وكانت هذه المرة فى شكل شابة جميلة. عندما رأت الإله ست قادمًا، تظاهرت بالبكاء. فسألها: "ماذا بك يا صغيرتى الجميلة؟ هل يمكننى أن أساعدك؟".



فأجابت: " أتمنى ذلك. مات زوجى الراعى مؤخراً، وتولى ابنى مسؤولية القطيع كما يقتضى القانون والعادات. ولكن أتى رجل غريب بعد ذلك فطرد ابنى واستولى على القطيع لنفسه". قال ست بسخط: " ياله من نذل! لا تخافى، عزيزتى. سأجعل هذا الرجل يعاقب ويسترد ابنك ميراثه الشرعى".

فصاحت إيزيس: " ها ها، تماماً مثلما اعتقدت!" فى حين حولت نفسها إلى حدأة وطارت إلى قمة شجرة قريبة. " لقد أدنت نفسك للتو يا ست. لأن القضية التى ألفتُها مطابقة تماماً للقضية محل نزاعك مع ولدى حورس" .

إن خطأ ست الفادح كلفه الكثير. والآلهة الذين كانوا يشاهدون هذا السجال جاء قرارهم لصالح حورس، وبعد ذلك شعر ابن أوزير بالتاج الأبيض وهو يوضع على رأسه.

تدخل أوزير :

ولكن، ما زال ست لا يعترف بقرار المحكمة المقدسة. فقال لحورس: "لو أنك جدير بالملك حقا، لا بد أن تكون قادراً على مقابلة كل المعارضين والفوز عليهم. وعلى ذلك، أنا أتحداك فقابلنى فى مصارعة حتى الموت. والفائز يكون ملكا على مصر!" .

قَبِل حورس تحدى عمه مشتاقًا لإثبات ذاته، ثم دارت سلسلة معارك خطيرة وهائلة. فى البداية، حوّل الإلهان نفسيهما إلى فرسى نهر ضخمين وغاصا فى عمق النهر، حيث أرسلت معركتهما أمواجًا عاتية تصادمت على ضفتى النهر. صنعت إيزيس بسرعة رمحا نحاسيا وأطلقته بقوة فى الماء لتقتل به ست، راجية أن تساعد ولدها. لسوء الحظ، أصاب الرمح حورس بدلاً من ست. فاستعانت إيزيس بقواها السحرية لتُخرِج الرمح من ابنها، ثم أطلقت الرمح مرة ثانية فأصاب ست هذه المرة.

حين خرج الإله ست على سطح الماء وجسمه يدمى، تذلل لإيزيس قائلاً: " ارحمينى .. أنا أخوكِ! بالطبع لن تقتلى أخاكِ، أليس كذلك؟". استغربت إيزيس ما قاله

ست، وقد قتل أخاه الإله أوزير من قبل. ولكن أشفقت عليه مع ذلك وسحبت الرمح من جسده. غضب حورس لدرجة كبيرة من صفحها عن ست مما جعله يفقد صوابه، ففصل رأس أمه عن جسدها، وسار بعيداً بين الجبال. فزع باقي الآلهة من هذه الفعلة، وأقسم رع أن يعاقب حورس. وقد أعادوا أولا إيزيس إلى تكوينها الطبيعي، ثم ذهبوا من بعد يبحثون عن حورس.

وكما تبين، كان ست أول من وجد حورس نائمًا تحت شجرة. ولم يضيّع ست الوقت، فقفز على ابن أخيه وفقأ عينيه ودفنهما في الصحراء. مرة أخرى، تدخلت ربّة عطوفة لصالح حورس. هذه المرة كانت الربّة السماوية الجميلة حتحور التي ملأت تجويف عينيه الفارغ بلبن من غزالة، ورجعت عيناه مرة ثانية. لم يدم وقت طويل بعد أن استعاد حورس عينيه حتى كان هو وست على رقاب بعضهما بعضًا مرة ثانية.

في النهاية، وبعد معارك ومشادات أخرى كثيرة، أنهى أوزير سيد العالم السفلي، النزاع بين الجميع، بخطاب أرسله لهيئة المحكمة العليا قال فيه: "لم يكن يجدر بكم أن تمنعوا ابني من ميراثه الشرعي، ويجب أن تعطوه له على الفور. لا يدفعكم حمقكم لتحدي إرادتي، فهناك أفاعي ومخلوقات أخرى بغيضة يمكن أن أعطيهم الحرية في أن يدمروا سطح الأرض. بالإضافة إلى ذلك، اعلموا أنه حتى أنتم أيها الآلهة لا بد أن تغوصوا في النهاية خلف الأفق في مملكتي، وهناك ستكونون في قبضتي جاهزين لتلقي غضبي وعقابي".

جاءت هذه التهديدات وجعلت كل الآلهة، بما فيهم الإله رع العظيم، يفكرون مرة ثانية. ثم نصّبوا حورس ملكًا على مصر. ظل كيانه الفعلي على العرش وحتى بعد انقضاء مدة حكمه، قوة تسكن كل فرعون حي. أما فيما يتعلق بالإله ست، فقد أخذه رع في السماء. ومنذ ذلك الحين، وصوت ست يُسمع بوضوح على هيئة الرعد.

أسئلة وأجوبة

س: ماذا طلب حورس من الآلهة الذين حضروا المحاكمة؟

ج: طلب منهم أن يمنحوه ما يُؤمن بأنه حقه، وهو عرش مصر الذى كان فى يوم من الأيام ملك والده أوزير.

س: ما هو التحدى الذى عرضه الإله ست على حورس أمام الآلهة؟

ج: تحدى ست حورس أن يقاتله على عرش مصر.

س: ماذا كان يعنى بابا - الإله المتجسد برأس قرد - عندما قال لرع إله الشمس أن ضريحه فارغ؟

ج: ترمز صورة الضريح الفارغ إلى الحاكم الذى لم تعد له صلاحيات تؤخذ بجدية.

س: لماذا لم يشعر باقى الآلهة بارتياح تجاه رد فعل الإله رع؟

ج: جعل مزاج رع الغاضب باقى الآلهة يقلقون لأنه يمكن أن يرفض فجأة أن يبحر قارب النور عبر السماء. وفى هذه الحالة، سوف ترتبك الدورة الطبيعية لليل والنهار، وربما تأتى بنتائج مدمرة.

س: كيف أوقعت الإلهة إيزيس بِست لكى يدين نفسه؟

ج: حكت إيزيس للإله ست قصة وهى متنكرة فى شكل شابة عن ابنها الذى اغتصب ميراثه الشرعى. كان الموقف فى القصة مشابهًا لموقف ست الذى كان ينكر حق حورس فى عرش مصر. وعندما عرض ست أن يساعد الولد البائس ويعيد له ميراثه، كان ذلك اعترافًا منه عن غير قصد بعلمه أن ما يفعله ضد حورس كان غير أخلاقى وخطأ.

س: فى المعركة الأولى بين ست وحورس، بماذا تشكل الإلهين؟

ج: تحول ست وحورس إلى فرسى نهر وتعاركا فى مياه نهر النيل.

س: من تدخل أخيراً ووضع نهاية للخصومة بين حورس وست؟

ج: تدخل الإله أوزير، والد حورس وسيد العالم السفلى. وهدد أن ينشر أفاعى ومخلوقات أخرى مخيفة على الأرض وأن يعاقب الآلهة عندما يؤولون إلى العالم السفلى، وذلك إذا لم يُنصِّب الآلهة حورس على عرش مصر.

تعليق الخبراء

فى أسطورة حورس، كانت الربّتان عنات وعشتارت اللتان عرفتا كابنتى رع الموهوبتين إلى ست، بدأتا ربّتين من أصول حضارات الشرق الأدنى القديم أكثر من كونهما من أصول مصرية. يقول جورج هارت George Hart الأستاذ بجامعة لندن:

"هاتان الربّتان الآتيتان من حضارات الشرق الأدنى القديم أصبحتا ملحقتين بمجمع الآلهة المصريين فى عصر الدولة الحديثة (نحو من ١١٥٠ إلى ١٠٧٠ ق. م.)، مثل الإلهين السوريين المهمين بعل ورشب. ومنذ أن أصبح لست صلة بآلهة الحرب الأجانب، كان ملائمًا أن يوهب إليه هاتين الربّتين.(٣)" .

ولأن حورس كان إلها سماويا، فقد كان المصريون يفسرون عينيه بالشمس والقمر. فى أحد أحداث الأسطورة فقد حورس عينيه عندما كان يتعارك مع ست. يوضح عالما المصريات أيان شو Ian Shaw وباول نيكولسون Paul Nicholson المعروفان، كيف كان لإحدى عينى حورس دلالة خاصة باعتبارها رمزًا:

"فى أثناء عراكه مع ست، قيل عن حورس إنه فقد عينه اليسرى (التى كانت تمثل القمر)، ومع ذلك كانت الربّة حتحور لحسن الحظ قادرة على إرجاع عينه. ثم أصبحت عين الأوجات (عين حورس) ترمز إلى العملية العامة للسلامة أو الإشفاء، ويعنى المصطلح حرفيا "الصوت". وقد رمزت هذه الحادثة أيضًا إلى حركة الازدياد والضآلة فى حجم القمر، وبقيت مجازًا (أحد المحسنات البديعية) عن الحماية والقوة والتحسين، وقد اشتهر بشكل واسع استخدام المصريين القدماء للتمائم من عين الواجات (وهى أشياء توضع حول العنق بغرض الحماية)".

(٥)

اقتراب دمار البشرية

(أسطورة إنقاذ البشرية)



مقدمة

اعتقد المصريون أنهم بقدر ما يحافظون على علاقتهم الجيدة بآلهتم، بقدر ما ينظر إليهم هؤلاء الآلهة بعين الإحسان، ويقدر ما تستمر الحياة على الأرض وتزدهر. وقد تكوّن حفاظ المصريين على علاقتهم الصحيحة بآلهتهم من عدد من العناصر. أكثرها أهمية، ما كان من دور الكهنة في المعابد المنتشرة فى مصر أن يؤدوا طقوسًا معينة يوميا وأن يقدموا القرابين (من النباتات أو الحيوانات أو الطعام والشراب) إلى الآلهة؛ وأن الناس من أعلى الحكام إلى الطبقات الدنيا من الفلاحين يجب عليهم ألا يغضبوا الآلهة بأى شكل من الأشكال. طالما حافظ الجنس البشرى على هذه العادات، فذلك سوف يجعل الآلهة بجانبهم.

ومن الناحية الأخرى، إذا لاحظ الآلهة على بنى البشر عدم أداء واجبات هذه العلاقة، فسوف يتبع ذلك عقاب إلهى. كان معروفًا أن ما يسمى بأسطورة الطوفان (الكارثة أو المصيبة) يعبر عن تحذير للبشر من قوى الدمار لدى الآلهة إذا تم إغضابهم أو عصيانهم. تأتى الأسطورة من مجموعة من التعاويذ السحرية تسمى كتاب البقرة المقدسة. وقد اكتشفت أقسام من هذا الكتاب فى مقبرة كل من الفرعونين؛ توت عنخ أمون، والمعروف الآن باسم الملك توت (حكم من ١٣٣٣ إلى ١٣٢٣ ق. م.)، وسيتى الأول (حكم من ١٢٩٤ إلى ١٢٧٩ ق. م.)، بالإضافة إلى مقابر ملكية أخرى.

هذه الأيام، ربما يكون الملك توت أشهر حكام مصر القدماء، باستثناء كليوباترا. وذلك بسبب الشهرة العالية التى ذاعت عندما اكتشف علماء الآثار مقبرته عام ١٩٢٢، وما جعل لهذا الاكتشاف طابعا خاصا أن المقبرة كانت تقريبًا كما هى مع قليل من التلف وبعض محاولات السرقة من لصوص المقابر الذين نهبوا وخرّبوا معظم مواقع

الدفن الأخرى فى مصر على مر السنين. كان من ضمن الكنوز التى وُجدت مع توت عرشه الخلاب، المصنوع من الذهب والمزين بالجواهر، بالإضافة إلى تابوته الذهبى الذى كان يحوى جثمانه.

ظهرت أسطورة الدمار فى الماضى السحيق، عندما كان إله الشمس رع لا يزال يحكم مصر. وبالإضافة إلى رع، تتضمن الأسطورة ابنته حتحور، والتى كانت دائما يشار إليها بعين رع. كانت دائمًا تُرى فى قرص الشمس، كما كانت قادرة أن تكون كيانًا منفصلاً أرسله رع لأداء مهمة، وكانت أحيانًا تأخذ شكل ابنته حتحور. تتضمن الأسطورة شخصيات أخرى مثل المحيط البدائى (اللانهائى) نو، والعضو فى ثامون الأشمونين (هيرموبوليس)، ونوت أم إيزيس وأوزيريس، وتحوت إله الحكمة والكتابة. بالإضافة إلى رجل من بنى البشر وهو الكاهن الأعلى فى هيرموبوليس.

اقتراب دمار البشرية (أسطورة إنقاذ البشرية)

حكمة نو:

حكم الإله رع المقدس أرض مصر لفترة طويلة جدا لا يحصى عدد أعوامها بشر. وعلى الرغم من أن إله الشمس حكم مصر بحسن وبعدل، كان من الواضح أنه كبر سنه وضعفت إرادته. لأنه حتى الخالدين يكونون عرضة بلا شك لعملية الهرم عندما يتخذون هيئة تشبه أهل الأرض. وبالتالى، بدأت جماعات مختلفة من الناس فى مختلف بقاع مصر يشككون فى استمرار قدرة الإله رع على الحكم. وقد عقدوا اجتماعات سرية دون علمه، وبدأ البعض فى التخطيط للإطاحة به ورفع ملك بشرى على عرشه.

ما لم يكن يدركه هؤلاء المتآمرون أن الإله رع، مهما بلغ ضعفه، لا يزال يمتلك قوى مهمة كثيرة. ومن هذه القوى حاستى السمع والبصر بالِغَتى الحدة ؛ ومن ثم كان قادراً على رؤية وسماع المتآمرين وهم يخططون ضده. وقد قرر رع أن لا بد من فعل شيء يعلّم هؤلاء البشر الجاحدين درساً، لذلك كوّن سرا مجلسا من معظم الآلهة وطلب منهم المشورة.

تساءل الآلهة: "لماذا أرسلت إلينا لنأتى هنا؟ ". بدأ رع يخبرهم بخيانة البشر. ثم نظر إلى نو، أكبر أعضاء المجلس سنا، وهو يمثل الهاوية المظلمة ما قبل الخليقة (المحيط اللانهائى) والذى جاء رع أصلاً للوجود من خلاله. وقد فكر رع فى أن عمر نو الكبير لا بد أن يكون قد أمده بحكمة لا يستهان بها.

قال رع: "من دموع عيونى وهبت الحياة لهذه المخلوقات الفانية، والآن انظروا كيف يردون الجميل بالتخطيط للإطاحة بى والتفرد بحكم مصر دون قائدهم رع. قل لى يا نو العظيم، ما هى العقوبة التى ينبغى أن أوقعها عليهم؟".

فرد نو بلا تردد: " لك كل الحق فى إحساسك بالخيانة والغضب يا بنى، إنك فى الحقيقة إله عظيم، حتى أعظم منى وقد منحتك الحياة. ولا ينبغى أن يُسمح للبشر أن يفلتوا من عقابك. فى رأيى، لا بد أن يمثل هذا العقاب قوة عينك المقدسة المرعبة. أرسل عين رع لكى تؤدب هؤلاء الجاحدين.

بعد سماع هذا التصريح، هتف باقى الآلهة فى صوت واحد: " نو يتكلم بصوت الحكمة، أرسل عين رع لكى تردع هؤلاء المذنبين الآثمين فى حق العدالة السماوية. اقتلهم جميعًا".

ثورة حتحور الدموية :

أومأ رع برأسه وقال: "سأفعل ما اقترحتموه يا رفاقى الآلهة". ثم نظر بالخارج إلى الأرض فرأى كثيراً من البشر يهرولون هنا وهناك تاركين بيوتهم ومدنهم مولين الأدبار إلى الصحراء. من الواضح أن المتآمرين عرفوا بطريقة ما باجتماع الآلهة ويريدون أن يختبؤا هاربين بعيداً عن غضب رع. ولكنهم كانوا مخطئين بشدة. ففى هذه اللحظة، ظهرت فى الواجهة عين رع فى شكل الربّة حتحور. عادة ما كان المصريون يرونها إلهة طيبة ومحبة، نوع من مثال الأم الكريمة؛ ولكنهم الآن سوف يرون الجانب المظلم منها. عندما وقفت أمام والدها معبرة عن الانتقام، لم يدُر حديث بينهما، حيث لا حاجة للكلام.

انطلقت الإلهة حتحور بغضب شديد. قفزت فى السماء وطارت إلى الصحراء، وهناك رأت المتآمرين على والدها قابعين خلف الصخور وبداخل الشقوق. حولت نفسها إلى لبؤة ضخمة متوحشة وانقضت عليهم مقتلعة وممزقة أجسادهم، فى حين تبعثر الناس فى ذعر. كانت تذبحهم وتشرب دمهم الذى لطخها وروى الرمال، واحداً واحداً أو فى مجموعات، وفى الواقع بالآلاف. عندما قتلت كل من كانوا قد اختبؤوا فى الصحراء،

بدأت تهاجم القرى والمدن، محطمة البيوت وملتهمة كل آدمى تجده. حتى الأطفال الأبرياء والرضع لم ينجوا من بطشها.

جلس رع طوال اليوم فى صمت يشاهد انهماك ابنته حتحور فى القتل. وصل لسمعه دعوات وصرخات الناس وهم يموتون فهدأت حدة غضبه وصفا مزاجه. قال لنفسه: " ما من شك أن الآدميين المتآمرين يستحقون العقاب، ولكن هؤلاء الناس ميتون جميعًا الآن، ومن الوحشية والخراب أن ندع باقى البشر يعانون من جراء جريمة لشرذمة من الرجال". وقد فكر الإله رع أيضًا أنه لو مات كل البشر، لن يجد هو وباقى الآلهة أحدًا يعبدهم.

سيدة السُّكْر:

وبالتالى، عندما حل الظلام وأوت الآلهة حتحور للراحة من هجماتها، حثها الإله رع أن تطفئ من ثورتها. وقال: " لقد حققتِ رغبتى فى معاقبة البشر، ولا حاجة لقتل المزيد منهم". ولكن ابنته لم تكن فى حالٍ يسمح بهذا الحديث الحليم العطوف. فقد أثارها طعم الدم الآدمى، وكانت شغوفة لاستكمال انهماكها فى القتل عند الصباح حيث قررت الانتهاء من مهمتها الرهيبة التى بدأتها. قالت لرع: " لن تغير رأيى"، ثم رقدت وغرقت فى النوم.

عندما رأى رع أن حتحور خرجت عن السيطرة، قرر اللجوء لخديعة لكى يمنعها من قتل باقى البشر. وبسرعة استدعى أسرع رسل وجدهم وأمرهم أن يهرولوا بسرعة الظل إلى موقع أسوان، مدينة بعيدة فى الجنوب، فهناك التربة شديدة الحمرة. كانت مهمة الرسل أن يأتوا بأكبر قدر ممكن من الطمى الأحمر قبل طلوع الفجر.

فى الوقت نفسه، استعان رع بمساعدة الكاهن الأعلى فى عين شمس (هليوبوليس) وجواريه. عندما رجع الرسل بسلال عديدة من الطمى الأحمر، صنع

الكاهن بسرعة صبغة حمراء من الأرض الملونة؛ وبأقصى سرعة ممكنة، جهزت الجوارى سبعة آلاف برطمانا من الخمر. وقبيل بزوغ الشمس، حسب أوامر رع، خلط الكاهن الأعلى الخمر مع الصبغة الحمراء، مكونًا خليطًا يشبه الدم البشرى تماماً. وبكل عناية حتى لا يوقظ حتحور، صب رع الخمر حمراء اللون صانعًا بركة ضخمة موحلة حول المكان الذى تنام فيه الإلهة حتحور.

بمجرد أن انتهى رع من مهمته، طلع الصبح واستيقظت حتحور مستعدة وتواقة لاستكمال القتل. " ما هذا؟ "، وتعجبت عندما لمحت البركة الحمراء الضخمة. ثم ضحكت قائلة: " المزيد من دم البشر! "، وعلى الفور بدأت تلعقه. تماماً مثلما تمنى رع، كان احتساء قدر كبير من الخمر بهذه السرعة جعل ابنته ثملة إلى أبعد حد. بعد ذلك أحست بالدوار والتعب ولم تعد تتذكر لماذا أرسلها أبوها إلى مصر. عادت الربّة الثملة للنوم وهى تجرجر أقدامها ولم تستيقظ لأيام عديدة. هذا هو السبب الذى لأجله سميت حتحور فى العصور التالية بـ " سيدة السُكْر " وعند الاحتفال بمهرجانها يشرب الناس خموراً قوية.

صعود رع:

إن سلسلة الأحداث كاملة بها العديد من الدروس المستفادة. فقد تعلم من نجا من البشر ألا يسبوا أو يتآمروا على آلهتهم الخالدة. وتعلمت حتحور أن تتحكم فى انفعالها المميت. أما رع فقد أيقن أخيراً أنه فى الحقيقة أصبح كبيراً ومتعبًا لدرجة لا تسمح له بمواصلة حكم مصر بطريقة سليمة. وما هو أكبر من ذلك، أنّ قتْل كثير من الأبرياء أحزن قلبه. والآن اشتاق لأن يصعد فقط فى السماوات، حيث يبحر فيما بعد بقارب النور فى السماء كل يوم.

جاء نو مع الربّة نوت عند سماعه عن رغبة رع فى ترك مصر والحكم فى السماء. وبأمر نو، حولت نوت نفسها إلى ما عرف بعد ذلك باسم البقرة المقدسة. وصعد رع

بزهو إلى السماء ممتطيًا ظهر البقرة وعليه بهاء إلهى، بينما يشاهد البشر ذلك فى رهبة. وكانت هدية الوداع الأخيرة إلى من نجا من البشر أن رع إله الشمس أمر الإله تحوت بأن يرعاهم ويعلمهم الكتابة، وهى الخطوة الأولى فى طريق حضارة أعظم.



أسئلة وأجوبة

س: ما هى القوى المهمة التى لا يزال يحتفظ بها رع؟

ج: كان لرع قدرة حادة فى حاستى السمع والبصر.

س: لماذا قرر الإله رع معاقبة الجنس البشرى؟

ج: لأن المصريين بدؤوا يشككون فى قدرته على حكم مصر كما بدؤوا التخطيط للإطاحة به.

س: ما هى الأداة التى اختار رع أن يعاقب بها البشر؟ وما الشكل الذى اتخذته هذه الأداة؟

ج: اختار عين رع. وفى هذه الحالة اتخذت عين رع شكل كيان منفصل وهى ابنة رع الربّة حتحور. ومع أن المصريين كانوا يصورونها دائمًا ربّة الغذاء التى تزودهم باللبن، فقد تحولت بتحفيز رع إلى آلة مرعبة للانتقام والتدمير.

س: بأى حيوان شكلت حتحور نفسها لكى تنفذ ثورتها القاتلة؟

ج: حولت نفسها إلى لبؤة ضخمة متوحشة بمخالب وأنياب حادة.

س: لماذا غيّر رع رأيه تجاه معاقبة البشر؟

ج: أحس بالمسؤولية والحزن لكل الأرواح التى أزهقت، واعتقد أنه من الظلم أن يحمل الناس البريؤون وزر مجموعة قليلة من الرجال المتآمرين ضده. وقد فكر رع أيضًا أنه لو مات كل البشر، لما بقى أحد يعبد الآلهة.

س: بعد أن غير رع رأيه وقرر الصفح عن من نجى من البشر، كيف نجح فى وقف ابنته المتعطشة للانهماك فى القتل؟

ج: بمساعدة كبير كهنة عين شمس (هليوبوليس)، جهز رع كمية كبيرة من الخمر ملونة بالأحمر لتبدو بلون الدم. ثم صب إله الشمس الخمر على الأرض قريبا من حتحور وهى نائمة. عندما استيقظت، اعتقدت أن الخمر دم فشربته وثملت. ثم عادت للنوم منهية بذلك ثورتها.

س: ما هى الدروس التى تعلمتها شخصيات هذه القصة؟

ج: من نجا من البشر تعلم أن يطيع الآلهة وألا يكيد ضدهم أبداً أو يستهين بقواهم. وقد تعلمت حتحور أن تتحكم فى انفعالها. أما رع فقد تعلم أن الوقت لا بد أن يحين للتقاعد حتى بالنسبة للآلهة.

س: بعد أن أنهى حكم مصر، ماذا أصبح دور رع الرئيسى فى السماء؟

ج: كانت وظيفته أن يبحر قارباً من النور فى السماء كل يوم، ممداً الناس على الأرض بالضوء والدفء.

تعليق الخبراء

فى اقتباس من كتابه عن الأساطير المصرية، يقدم العالم لويس سبينس Lewis Spence معلومات قيمة عن الربّة حتحور الغامضة والمتعددة الأوجه، والتى دمرت جنس البشر تقريبًا طبقًا لأسطورة الطوفان، تقول:

"ليس من السهل تقدير الدلالة الميثولوجية الصحيحة للربّة المصرية حتحور، نموذج المرأة، عن الحب والسعادة ... حيث نجد عددًا وافرًا من الأفكار الأسطورية منصهرة فى كيان حتحور: كانت ربّة للقمر، وربّة للسماء، وربّة للشرق، وآلهة للغرب ... وربّة للزراعة .. وربّة للرطوبة، وفى بعض الأوقات ربّة للطاقة الشمسية. كان الشكل الأصلى الذى عُبدت حتحور عليه هو شكل البقرة. بعد ذلك كانت تتمثل فى شكل امرأة برأس بقرة، وأخيرًا برأس بشرى، وجه عريض، عطوف، هادئ، وبكل تأكيد تشبه البقرة. أحيانًا كانت تحتفظ بآذان أو قرون الحيوان الذى تتمثله[٢]".

نتيجة لثورة حتحور ضد الجنس البشرى، أرشد رع الإله تحوت لأن يعلم من نجى كيفية الكتابة. تصف عالمة الأساطير المعاصرة فيرونيكا أيونس Veronica Ions لماذا كان تحوت الاختيار الطبيعى لهذه المهمة، فتقول:

"كان هناك دور آخر للإله تحوت(بجانب كونه ناشرًا للحكمة وساحرًا رئيسيا) وهو أنه المعلم لكلمات الرب، أو المعلم لحروف الكتابة. وقد اشتهر عالميا بأنه مخترع الكتابة. والعلاقة مع السحر واضحة، لأن النصوص كانت المفتاح لكل الأسرار الدينية. ومن المفترض أن يكون تحوت قد كتب بيده كتابًا فى السحر والمجلدات الاثنين والأربعين التى تحوى كل حكمة العالم... ولأنه كاتب رع وسكرتيره، كان يعبده الكتبة وكل المتعلمين فى مصر، بما فيهم بالطبع طبقة الكهنة[٣]".

(٦)

الأميرة والشيطان



مقدمة

كانت بعض الأساطير المصرية تتعلق بأناس حقيقيين، عادة من الفراعنة أو الشخصيات الملكية الذين صنعوا لأنفسهم تاريخا مهما فى عصور الماضى البعيد. كان ذلك هو الحال مع القصة التى اشتهرت باسم "الأميرة والشيطان". فى القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كانت مصر تحت حكم أسرة إغريقية هى البطالمة، قام بعض الكهنة بحفر القصة على لوحة موجودة الآن فى متحف اللوفر بباريس[١].

لأسباب غير معروفة، اختار الكهنة فى تدوينهم للأسطورة الزمن والظروف المحيطة بما يعود إلى ألف سنة قبل ذلك، حيث عهد حكم الفرعون رمسيس الثانى، أحد أشهر الحكام المصريين وأكثرهم إنجازًا. وقد عُرف كثيرا أنه هو الفرعون الذى ثار ضده اليهود بقيادة موسى عندما غادروا مصر متجهين للأرض الموعودة، لذلك كان رمسيس هو الفرعون الذى تم تمثيله فى كلا النسختين الصامتة والمسموعة من فيلم الوصايا العشر. (اعتمد هذا التعريف على بعض سطور فى العهد القديم كانت تقول إن العبيد العبرانيين (اليهود) ساعدوا فى بناء أحد مدن الكنوز الخاصة - برمسيس. ومع ذلك، لا يزال بعض العلماء غير متأكدين إن كانت هجرة اليهود حدثا حقيقيا، ولو كانت حقيقية، لم يتأكدوا إن كانت فى عهد رمسيس)[٢].

فى صياغتهم لقصة الأميرة والشيطان، حرّف كهنة البطالمة الحقائق الخاصة بحكم رمسيس إلى حد بعيد حتى توافق رغباتهم. فى الحقيقة، وفى عام ١٢٨٥ ق. م.، خاض رمسيس معركة كبيرة ولكنها غير حاسمة مع الحيثيين، شعب يسكن فى آسيا الصغرى (تركيا الآن). وبعد سنوات عديدة، قامت الدولتان بتوقيع معاهدة سلام؛ ختموها بزواج رمسيس من ابنة ملك الحيثيين. فى رواية الكهنة المكتوبة على لوحة حجرية، يتزوج رمسيس على العكس من ابنة ملك بلاد بختان البعيدة (والتى ربما تمثل بكتريا القديمة فى شمال أفغانستان الآن، أو أنها دولة من وحى الخيال).

وقد أدخل الكهنة الإله خنسو فى القصة أيضًا، وهو إله للقمر كان أحيانًا يحل محل الإله تحوت وكانوا يعتقدون أن لديه قوى الإشفاء ، خصوصًا والقدرة على إخراج الأرواح الشريرة التى تسكن أجسام الناس. يصف إى إيه واليس بدج E.A. Wallis Budge الخبير فى معارف مصر القديمة، كيف صور كهنة مصر الإله خنسو فى رسومهم:

"كان لديه فى الغالب جسم إنسان ورأس صقر؛ سواء كان واقفًا أو جالسًا على عرش، وأحيانًا كانت الرأس بخلاف ذلك رأس إنسان. كان يرتدى على رأسه قرص قمر موضوعًا فى هلال أو قرص الشمس وبه الصل (الثعبان) (الصورة الملكية للكوبرا)، أو قرص الشمس مزينًا بالريش وبه الصل (الثعبان). أحيانًا كان يُرى جالسًا على عرش، بينما يظهر فى أحيان أخرى فى شكل رجل محنط جالس على عرش؛ فوق جبهته الصل الملكى وعلى جانب رأسه خصلة الشباب"[٣].

بالإضافة إلى رمسيس، وملك بختان، وخنسو، تناولت الأسطورة شخصية زوجة رمسيس البختانية الجديدة، والتى كان اسمها المصرى ماعت نفرو رع؛ بالإضافة إلى كاتبه الملكى تحوت إم حاب؛ وأخت ماعت نفرو رع الأميرة بنتريش.

الأميرة والشيطان

الأختان الملكيتان من بختان :

فى يوم من الأيام، قرر الملك المقدس رمسيس الثانى أن يغادر مصر ويسافر إلى سوريا، وهى منطقة تحد شرق البحر الأبيض المتوسط على بعد مئات عديدة من الأميال شمال مصر. وهناك جمع الجزية أو الضرائب التى تعبر عن الولاء والطاعة - فى شكل ذهب وأشياء أخرى ثمينة - من أمراء عديد من الدول المحيطة. بعض هذه الدول غزاها مؤخراً، بينما رأى الباقون أنه من الحكمة أن يستسلموا للفرعون قبل أن يرسل جيوشه إليهم. فى كلتا الحالتين، كان ما يتم دفعه يعبر عن مملكة تخضع لسيادة رمسيس وسلطته.

كان أحد هؤلاء الأمراء أمير بلاد بختان البعيدة، وقد أرسل المجموعة المعتادة من المعادن النفيسة والمجوهرات النادرة والعربات المحملة بالخشب والسلع القيمة الأخرى. ومع ذلك كان أيضًا قد أرسل ضمن ذلك هدية - خاصةً - جدا هى كبرى بناته الجميلة. وقد تمنى لو سُرَّ رمسيس بها فسوف يسمح لها الفرعون أن تلحق بجناح النساء الموجود به زوجاته المصريات. (كعادة من العادات، كان ملوك المصريين عادة يتخذون زوجات كثيرة مكونين مجموعة تسمى الحريم). فى الواقع كان ملك مصر العظيم مسروراً جدا بالفتاة، لأنها لم تكن جميلة فحسب، ولكنها كانت ذكية وعطوفة وكريمة. بالإضافة إلى ذلك، كان لديها مواهب كثيرة، بما فى ذلك صوت غناء جميل وقدرة على العزف على القيثارة وبعض آلات موسيقية أخرى. فُتِن رمسيس بالأميرة فأعطاها اسما مصريا هو ماعت نفرو رع، وبعد ذلك جعلها الزوجة الأولى فحملت لقب ملكة مصر.

بعد سنة تقريبًا، وفى أثناء فصل الصيف، كان رمسيس يحتفل مع بلاطه بمهرجان الوادى الجميل البهيج، على شرف إله الشمس رع. فى ذروة الاحتفال، حضر رسول من بختان بأخبار أخمدت فرحة الجميع. قال الرسول للملكة ماعت نفرو رع: " أختك الأميرة بنتريش مريضة جدا بحمى فتاكة. ثم استدار لرمسيس الذى بدا عليه الاهتمام، فانحنى الرسول مبديًا الاحترام، وقال: " أيها الملك العظيم، كل الأطباء فى بلدى فشلت كل محاولاتهم لإنقاذ الأميرة. ومصر معروفة على اتساع الزمان والمكان بأن لديها أطباء مهرة. يطلب سيدى أمير بختان من سيد كل الأراضى التى تقع تحت قبة السماء، أن يرسل معالجا قويا لكى يعالج ابنته المريضة".

فأعلن رمسيس دون تردد: " بالطبع، سأفعل كل ما أستطيع لمساعدة أخت زوجتى العزيزة. واليوم سأستدعى أفضل الأطباء والسحرة لدى ليقرروا ما ينبغى فعله".

ممسوسة من الشيطان :

اجتمع رمسيس مع مستشاريه الطبيين منفذًا لكلمته. وكلهم اتفقوا على أن يسافر كاتب القصر الرئيسى والمعالج الماهر تحوت إم حاب إلى بختان لكى يشخص ويعالج مرض الأميرة.

ولأن هذه الأرض تقع بعيدا جدا عن مصر، أدرك تحوت إم حاب أنه لا يجب أن يضيع الوقت. سافر على جمل(*) بأقصى سرعة يبلغها إنسان، واستمر فى ترحاله طوال الأيام والليالى ولم ينم إلا فقط حين يبلغ به التعب ولا يستطيع أن يفتح عينيه. عبر عددًا لا يُحصى من سلاسل جبال وعرة، وصحارى قائظة، وغابات عميقة، وأنهار متسعة، حتى وصل أخيرًا إلى بختان بعد شهور صعبة عديدة. هناك أجرى لقاءً سريعًا

(*) يجب النظر بحذر إلى وسيلة الانتقال هذه للسفر التى استخدمها تحوت إم حاب وهى الجمل لأنها عمليا لم تكن شائعة فى أثناء فترة حكم الرعامسة. وهناك الكثير من الجدل بين الباحثين حول تدجين الجمل خلال أواخر الألف الثانى قبل الميلاد. (المراجع)

مع الملك، الذى كان مرتاحًا وممتنًا لرؤيته. ثم هرع الكاتب إلى مخدع بنتريش. كان واضحًا أنها لا تزال تعانى من حمى عنيفة. كان جلدها ساخنًا ومتوهجًا، والتنفس سريعًا ومجهدًا، ولم يبد أنها تعرفت على أبيها نفسه، ولا أى شخص آخر ممن زاروها.

بمجرد أن فحص تحوت إم حاب البنت، أصبح واضحًا له أن الحمى بسبب روح شريرة سكنت جسمها. بذل الكاتب الملكى قصار جهده ليخرج الروح الشريرة، ولكن لم يكن سحره قويا بالقدر الكافى. قال للملك: " أنا آسف، فقط قوة إله هى التى تستطيع إخراج هذا الشيطان. أفضل فرصة لإنقاذ الفتاة أن تطلب من سيدى أن يرسل لك أحد آلهتنا فى مصر لكى يحاول".



وافق الملك، وعلى الفور أرسل أسرع رسله إلى رمسيس بهذا الطلب. فأسرع رمسيس إلى معبد إله القمر خنسو فى مدينة طيبة المقدسة واقترب من التمثال الذهبى للإله، والذى يستقر على قاعدة منحوتة رائعة. قال: "أيها العظيم خنسو، والذى يسمى فى الأشمونين خنسو – تحوت العظيم. أتيت إليك اليوم لتقف بجانب أخت زوجتى الرئيسية، الأميرة بنتريش. إنها تحت سيطرة شيطان، وقد قال لى كهنتى أن أحد الأشكال المشهورة التى تتخذها هى طارد الشيطان. هل من الممكن لهذا الشكل من نفسك المقدسة المستقيمة أن يسافر إلى بختان البعيدة ويعالج البنت؟". بعد ثوان قليلة، أومأ التمثال الذهبى برأسه ببطء، مشيراً إلى أن الإله وافق على الطلب.

خنسو يحارب الشيطان :

أمر رمسيس بفرحة أن يُنقل التمثال بكل سرعة إلى بختان، ولكن بكل حرص أيضًا. ذهب موكب كبير من الحراس والكهنة والخدم لكى يتأكدوا من أن الرحلة هادئة وخالية من المشاكل وحتى لا يمكن لأى أحد من اللصوص أو المعادين أن يُحدث ضرراً بالتمثال المقدس مما يُغضب الإله. عبر المسافرون نفس السلسلة المتعبة من الجبال والصحارى والغابات والأنهار التى عبرها تحوت إم حاب؛ كانت الرحلة طويلة ومتعبة، ولكن لحسن الحظ لم يقابلوا أية مشاكل.

عند وصولهم، نقل الكهنة المصريون التمثال المقدس إلى داخل القصر، ثم أرشدهم الملك إلى مخدع بنتريش. تقريبًا بمجرد أن دخلوا، كان هناك ضجيج كبير ثم بدأ التمثال المقدس يتوهج. امتلأ الملك والكهنة ومن فى الغرفة بالرعب وانحنوا لأسفل عندما ظهر الإله خنسو قاهر الشيطان فجأة أمامهم بهيئته. طاف الإله ذو رأس الصقر فى شكل كروى مشع بشكل رائع، ثم انحنى فوق الفتاة المحمومة ووضع يده على جبهتها المحترقة. ثم بدأ هو والأميرة يرتعدان، فقد اشتبك خنسو مع الشيطان فى معركة عنيفة.

لم يستغرق خنسو وقتًا طويلاً حتى كسب المعركة، لأنه لم تستطع أية روح شريرة أن تصمد أمام سحره القوى. خرج الشيطان فجأة: مخلوق بشع يبدو ملتويًا وجلده مثل جلد الحيوانات وعيناه صفراوتان. أقعى مطأطئًا رأسه أمام خنسو، وقال: " أعترف أننى لست كفئًا لك يا خنسو العظيم، وأبتهل إليك أن ترحمنى ولا تدمرنى".

" سأصفح عنك، على أن تمتنع عن إيذاء أى شخص آخر على هذه الأرض"، كان ذلك رد خنسو الإله الرحيم.

فتنهد الشيطان وقال بصوت مرتجف: " ليكن ذلك، سأغادر بختان إلى الأبد، كل ما أطلبه أن يقيم الملك وليمة لى ولك". فوافق خنسو والملك على طلب الشيطان. ثم جلس الإله والشيطان معًا على مأدبة، وأوفى الشيطان بوعده وغادر فى نفخة دخان.

استيقظت الأميرة بنتريش بعد ذلك، وكان من الواضح أنها شُفيت تمامًا. كان أبوها مليئًا بالفرحة، ولكنه كان خائفًا من عودة الشيطان، فقرر أن يحتفظ بتمثال خنسو فى بختان. ومع ذلك، بعد ثلاثة أعوام رأى الملك فى حلمه الإله خنسو فى شكل صقر ذهبى يخرج من التمثال ويطير بعيدًا تجاه مصر. أدرك أخيرًا أن ليس لديه الحق فى إبعاد خنسو عن موطنه الأصلى، فأرسله الملك عائدًا إلى رمسيس، مع دفعة جديدة من الضرائب عرفانًا لا ينتهى بجميل إنقاذ ابنته.



أسئلة وأجوبة

س: لماذا أرسل ملك بختان ابنته إلى رمسيس؟

ج: كانت جزءاً من الضريبة التى كان يدفعها أبوها لرمسيس حتى يضمن ألا تغزو مصر بختان.

س: لماذا فُتِن رمسيس بابنة ملك بختان؟

ج: لأنها كانت جميلة، وذكية، وعطوفة، وكريمة. وكان لديها أيضاً مواهب موسيقية كما كان لديها صوت عذب فى الغناء.

س: من الذى أرسله رمسيس أولاً ليحاول معالجة بنتريش؟

ج: أرسل الفرعون كاتبه الرئيسى تحوت إم حاب، والمعالج الماهر أيضاً، لمحاولة علاج الأميرة بنتريش.

س: ما هو المرض الذى تبين أن الأميرة بنتريش كانت تعانى منه؟

ج: أكد تحوت إم حاب أن الأميرة مصابة بحمى بسبب شيطان يسكن جسمها.

س: لماذا أرسل رمسيس تمثال الإله خنسو إلى بختان؟

ج: كان التأكيد على أن قوة إله مصرى فقط هى التى تستطيع إجلاء الشيطان عن الأميرة. فدعا رمسيس إلى الإله خنسو بأن يقوم بهذه المهمة لأنه كان مشهوراً بأنه قاهر الشياطين.

س: بعد إخراج الشيطان من جسم الأميرة، لماذا جلس الإله خنسو على مأدبة مع المخلوق الكريه؟

ج: عقد خنسو والملك صفقة مع الشيطان، الذى وافق على أن يغادر المنطقة للأبد فى مقابل وليمة. فى مصر القديمة، كان الآلهة والملوك، وحتى الناس العاديون، معروفين بإنهاء أعمالهم بالصفقات، مهما كان الشخص أو المخلوق الذى يتعاقدون معه وضيعًا أو كريهًا.

س: ما الشكل الذى اتخذه الإله خنسو فى حلم الملك، وماذا كان يعنى الحلم؟

ج: اتخذ خنسو فى الحلم شكل صقر ذهبى يصعد من التمثال ويطير عائدًا إلى مصر. وقد أدرك الملك أن ما رآه فى الحلم يرمز إلى رغبة الإله فى الرجوع إلى موطنه الأصلى. وبالتالى، قام الملك الذى كان ممتنًا لخنسو فى مساعدة ابنته، بإرسال تمثال الإله إلى موطنه فى مصر.

تعليق الخبراء

كما توضح قصة الأميرة والشيطان، كان إله القمر خنسو مرتبطًا أحيانًا بتحوت إله الحكمة والكتابة، أو بديلاً له. ولأنه إله القمر فكان من الطبيعى أن يسافر عبر قبة السماء. كان تحوت يُعبد أيضًا باعتباره إلهًا للقمر، بالإضافة إلى كونه الرسول السماوى المسافر. لذلك كان من الطبيعى أن يدمج كهنة بعض المناطق المصرية كيان الإلهين معًا. يضيف العالم فيليب دركين Philippe Derchain ويقول:

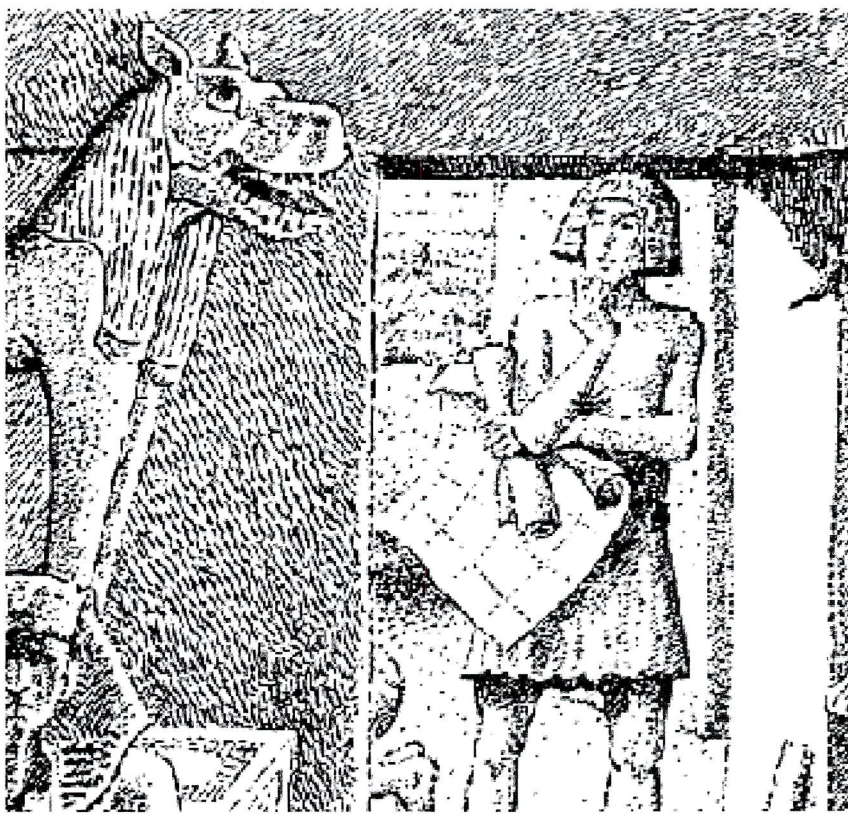
"فى كل الأزمنة كان كل إلهين يتحدان فى واحد ... بينما كان الواحد يأخذ مسميين. أحدهما يُخصص لشخص الإله، بينما يدل الآخر على الوظيفة التى يقوم بها هذا الشخص فى وقت محدد. فمثلاً، بكل بساطة يؤكد اسم خنسو-تحوت فكرة أن إله القمر خنسو قادر على حفظ القمر فى مداره الصحيح (بشكل ما عن طريق القيام بدور تحوت)[٤]".

ويضيف البروفيسور بدج Budge هذا الوصف المادى للإله خنسو كما صوره الفن المصرى:

"بما أن خنسو العظيم ينحدر من نو، فهو مزود برأسى صقرين أحدهما ينظر لليمين والآخر لليسار، وله أربعة أجنحة. يقف بكلتى قدميه كل منهما على رأس تمساح؛ وعلى رأسه قرص القمر وهلاله. وفى هذه الهيئة يمثل الشمس عند شروقها والقمر فى بدايته معًا، ويمثل التمساحان القوتين الهائلتين للظلام الذى انتصر عليه.[٥]".

(٧)

أذكى المصريين
على الإطلاق



مقدمة

على الرغم من أن معظم الأساطير المصرية تأتى من النقوش والمناظر وأوراق البردى وبعض المصادر المصرية الباقية، حفظ القليل منها فى كتابات الشعوب المجاورة، وأكثرها من اليونانيين. كان من أشهر هذه الأساطير المصرية وأروعها ما روى عن لص ماهر خدع فرعون عظيماً.

مصدر القصة هو التاريخ الشهير الذى كتبه الكاتب اليونانى هيرودوت **Herodotus** فى القرن الخامس قبل الميلاد، الذى عُرف فيما بعد بأبو التاريخ. وقد اكتسب هذا المسمى لأنه كما نعرف كان حتى الآن أول من كتب تأريخاً اصطلاحيا لأحداث تاريخية حقيقية. أما من سبقه من الكتاب فقد قدموا فقط كتابات عن الجغرافيا أو مجموعات من التشبيهات والأحداث الأسطورية. يعتبر تاريخ هيرودوت تقريراً مفصلاً لبداية القرن الخامس قبل الميلاد حيث غزوات الفرس لليونان (تقع مملكتهم فى المنطقة الموجود عليها إيران والعراق الآن). كما تتضمن كثيراً من التفاصيل حول العديد من الشعوب والأماكن التى زارها هيرودوت فى ترحالاته المطولة والمتكررة.

كانت مصر أحد الأماكن التى زارها هيرودوت، وقد أدهشته. هناك، حَكَى له الكهنة وغيرهم عدداً من الحكايا الشهيرة، منها ما كان يخص الآلهة ومنها ما كان يتعلق بحكام مصر فى الماضى. كان أحد هؤلاء الحكام كما قالوا رامبسينيتس، الفرعون الذى اشتهر بخديعته من قبل لص ماهر. حقيقةً، لم يكن هناك قط فرعون مصرى بهذا الاسم، ولكن العلماء المعاصرين يعتقدون أنه يمكن أن يكون قد اختلط اسمه مع اسم رمسيس الثالث الذى حكم من ١١٨٤ إلى ١١٥٣ ق. م.(٢) وعلى كل حال، لم يقل أحد أن أياً مما حدث فى الأسطورة حدث بالفعل.

أذكى المصريين على الإطلاق

حجرة الكنوز الجديدة :

قيل إنه لم يكن فى تاريخ مصر كله فرعون أغنى من رامبسينيتس، حيث كان يملك الذهب والفضة والمجوهرات الثمينة وكنوز أخرى بكميات غير معقولة. ولم يكن من المستغرب أن يخاف على كنزه من السرقة. وأن يحدث ذلك يجعله ملكًا فقيراً، وعند رامبسينيتس الملك الفقير يعنى ملكًا بلا قوة ولن يتذكره قومه بعد انتقاله إلى مملكة أوزيريس وراء الأفق.

وبالتالى، أمر رامبسينيتس ببناء غرفة - خاصة - لكنزه على طول جانب من جوانب القصر. قال لمهندسه المعمارى: "لا يجب أن يكون فى الغرفة أية نوافذ ويجب أن يكون لها باب واحد فقط. علاوة على ذلك، أريدك أن تشيد الحوائط والأرضيات والأسقف بقوالب صخرية ضخمة كى لا يستطيع الرجل أن يكسرها ولو بفأس كبير، حتى ولو عمل فى ذلك ليل نهار على طول عشرين سنة". نفَّذَ المهندس تعليمات الملك وبنى غرفة الكنوز الجديدة التى بدا عليها أنها غير قابلة للتخريب وصامدة أمام محاولات السرقة. وبعد ذلك أمر رامبسينيتس بأنْ تُنقل كل كنوزه إلى داخل الغرفة وجعل أكثر حراسه ثقة على باب الغرفة ليتأكد من عدم قدرة أى لص على الدخول إلى الغرفة.

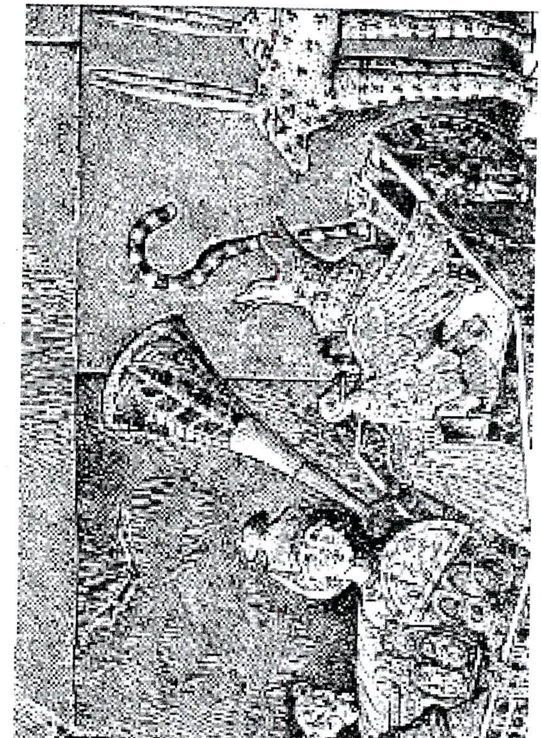
ومع ذلك، ما لم يحسب الملك حسابه هو أن مهندس البناء المعمارى، بالإضافة لكونه خبيراً فى البناء، كان رجلا ذكيا جدا. فى أثناء بناء الغرفة، قطع المهندس أحد الأحجار الموجودة فى الجدار الخلفى من الخارج إلى جزأين منفصلين. ثبَّت الجزء

الأول فى مكانه ولكنه أبقى الجزء الآخر غير محكم، وقد كان خفيفًا بحيث يحركه شخص واحد بمجهود متواضع. وُضع الحجر بطريقة متقنة بحيث يبقى خط الاتصال مرئيا للعين.

ولدا المهندس المعمارى :

بعد مرور سنين، أصبح المهندس المعمارى كبيراً ومريضًا للغاية، وعندما كان راقدا فى فراش الموت، استدعى ولديه الصغيرين وهمس إليهما بسر حجرة الكنوز والحجر المفصول بها. قال: "لا أريدكما يا ولدى الصغيرين أن تدخلا معترك الحياة مضطرين للكدح أو التذلل لكسب المعيشة، بينما يجمع فرعوننا الجشع هذا ثروات أكثر مما يستحق. عندما أموت وأُدفن، ابحثا عن الحجر وأخرجاه وادخلا غرفة الكنوز واحملا بعضًا من ثروته لكما. كل ما أطلبه أن تأخذا حِذركما ولا تكونا طماعَين مثله".

بعد شهر تقريبًا، وبعد دفن أبيهما، انتظر الفتيان حتى جنّ الظلام ثم اتخذا طريقهما إلى حائط القصر. وهناك وجدا الحجر المفصول فى نفس المكان الذى حدده والدهما. عندما أزاحا الحجر ودخلا إلى الغرفة، أضاء الأخوان مصباحًا فأصابتهما الرهبة والسعادة عندما رأيا كنوز الملك المدهشة تتألق بوهج أصفر برتقالى. ملأ الولدان جيوبهما بالعملات الذهبية والجواهر بكل هدوء حتّى لا ينبها الحراس، ثم خرجا من الغرفة بالطريقة نفسها التى دخلا بها. وأعادا الحجر إلى مكانه.



في اليوم التالي، ذهب الملك رامبسينيتس إلى الغرفة ليأتي بعقد هدية لأحدى زوجاته. رأى الحراس لا يزالون في الخدمة، ثم فحص الباب بنفسه ليتأكد أن الرصاص الذي يضعه على الباب لم يكسر. فقال مطمئنًا نفسه: "لا بد أن كنزي لا يزال آمنًا". ولكن عندما دخل الغرفة ووجد أن العقد وبعض المجوهرات الأخرى مفقودين، بدأت ثقته تتلاشى، وقال متذمرًا: "كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ إن الحراس لم يروا شيئًا، ولم يكسر الرصاص على الباب".

كان إحباط الملك يزداد ليلة بعد ليلة حيث كان يتكرر نفس السيناريو. كان الأخوان يتسللان إلى الغرفة ويسرقان كل ما يستطيعان حمله، ويهربان. ثم يكتشف الملك السرقة في اليوم التالي، ولكن لم يستطع فهم ما يحدث. في النهاية، أمر الملك أن يُنصب شَرَك بدعائم معدنية ثقيلة ويوضع داخل الغرفة.

في تلك الليلة، دخل الأخوان غرفة الكنوز كالعادة، ولم يدم طويلاً حتى وقعت قدم أحدهما في الشرك. حاول أخوه بكل جهده ولكن لم يستطع تحريره. فقال الأخ الأسير: "لو جاؤوا في الصباح ووجدوني هنا، فسوف يبحثون عنك ويعاقبون العائلة كلها. شيء واحد يمكن فعله، وهو أن تقطع رأسي وتأخذها معك. وبهذه الطريقة، لن يستطيع أحد التعرف عليّ وتكون عائلتنا في أمان". فتنهد أخوه في أسى، ووافق حيث لا يوجد أي خيار بديل لذلك، ونفّذ ما أمره أخوه به.

أذكى شيء فعله:

في الصباح التالي، صاح رامبسينيتس في غضب حينما اكتشف الجسم مقطوع الرأس في غرفة الكنوز. تيقّن الملك أنه لا بد من وجود لص آخر طليق، حيث حاول شخص ما أن يُخرج رأس الرجل من الغرفة. وحتى يكشف الملك اللص الحي، أمر أن تُعلق الجثة على باب السور الخارجي للقصر، وأمر بالحراس ليقفوا على مقربة منها. إذا حاول أي شخص أن ينقذ الجثة فسوف يقبض عليه الحراس وسيكون اللص قد أُمسك به في النهاية. هذا ما اعتقد الملك أن يحدث على الأقل.

فى المقابل، دبَّر الأخ الحى خطة رائعة، وقد تبين فى النهاية أنه أذكى حتى من أبيه. أولاً جمع أوعية عديدة من جلود الماعز، وملأها بالخمر، ووضعها على الحمير، وساق الحمير لتمُرّ أمام الحراس الجالسين بجانب السور الخارجى للقصر. ثقب اثنتين من أوعية جلود الماعز سرا ليتدفق منهما الخمر. ثم بدأ يصرخ، "سوف يعاقبنى سيدى على ذلك!" أتى أحد الحراس يساعد الشاب فى إنقاذ الخمر بعدما رأى ما حدث، وسريعًا ما أصبح ودوداً مع الحراس وعرض عليهم خمراً من الأوعية المتبقية. وبمجرد أن نام الحراس المخمورين وجاء الليل، فك الولد وثاق أخيه وهرب به.

عندما علم الملك بهذه الخديعة، زاد إحباطه وزاد. ثم أقسم: "إذن ساعدونى، ولأخدعن هذا الشخص بطريقة ما". وهذه المرة دبّر رامبسينيتس خطة استعان فيها بابنته الأميرة صاحبة الجلالة. قال لابنته: " سوف أُصدر بيانًا أن من حق أى رجل فى المدينة أن يتحدث إليك وأن تمنحيه أى معروف يتمناه. ولكن أولاً، يجب أن يُفصح لك عن أذكى شىء فعله من قبل. وعندما يكشف اللص عن نفسه بهذه الطريقة، فسوف يكون سجينى أخيراً".

ولكن للمرة الثانية يتم إفساد خطة الملك. عندما سمع الأخ بهذا التصريح وخمّن أنه شَرَك، ذهب اللص إلى المقابر وقطع ذراعًا من جثة وأخفى الطرف المفصول تحت ثوبه. وعندما جاء دوره ليقابل الأميرة، طرحت عليه السؤال عن أمهر شىء فعله. وبجرأة، حكا لها اللص عن قيامه بإسكار الحراس والهروب بجثة أخيه. عندما سمعت هذه الأخبار أمسكت الأميرة بذراعه ونادت على الحراس. صاحت فى زهو: "لقد أمسكت بالسارق"، ولكنها بعد ذلك أصيبت بالذعر عندما رأت السارق قد هرب ولا تزال تُمسك باليد المقطوعة، وقد جعلها اللص بذكاء تبدو كأحد ذراعيه.

بعد أن خُدِع رامبسينيتس لمرات عديدة، قرر أنه لا فائدة من بذل مزيد من الجهد للإمساك بهذا اللص. أصدر الملك بيانًا يعترف فيه بالهزيمة، وعرض على اللص العفو والمزيد من الثروة لو جاء فقط وكشف عن هويته. بعد أيام قليلة، جاء ابن المهندس المعمارى إلى القصر وقدّم نفسه للملك أمام البلاط الملكى الخاص.

قال رامبسنيتس: " أنت فعلاً رجل ذكى جدا لأنك استطعت أن تخدعنى كل هذه المدة، فى الحقيقة، أنت أذكى المصريين على الإطلاق. لن تصبح فقط مستشارى الملكى، ولكنك ستصبح صهرى أيضًا، لأنى سأزوجك ابنتى". وبهذه الطريقة، أظهر رامبسينيتس أنه، حتى إن لم يكن ذكيا بالدرجة الكافية، فهو على الأقل حكيم، لأن أذكى رجل مصرى حى سوف يصبح خادمه الموثوق فيه إلى الأبد.

أسئلة وأجوبة

س: كيف نجح المهندس المعماري في أن يبني غرفة الكنوز كما أراد الملك مع إعطاء الفرصة للص أن يصل فيما بعد داخل الغرفة دون علم الملك؟

ج: أخذ المهندس المعماري حجراً موضوعاً في الحائط الخلفي للغرفة. ثبّت نصفه في الحائط وجعل النصف الآخر حرا بحيث يستطيع رجل أن يزيح الحجر ويصعد إلى داخل الغرفة.

س: كيف أمسك الملك بأحد اللصين؟

ج: نصب شركا معدنيا في غرفة الكنوز.

س: عندما تم الإيقاع بأحد الأخوين في شرك الملك، لماذا كان مُصِراً أن يضرب أخاه عنقه؟

ج: بوجود الرأس متصلة بالجسم، سوف يتعرف الملك ورجاله على اللص، وسوف يكون من حق السلطات أن تتعقب باقي أعضاء عائلته وتعاقبهم. وعلى العكس، لو وجد رجال الملك جسداً فقط بلا رأس، فلن يجدوا مجالاً للتعرف على صاحب الجسد.

س: كيف حاول رامبسينيتس خديعة الأخ الحي لكي يظهر؟

ج: أمر أن تُعلق جثة الميت على باب السور الخارجي للقصر ووضع عليها حراسة. وقد أمل الملك أن يأتي أحد أقاربه لإنقاذ جثته لكي يمنحها مراسم الدفن المناسبة.

س: كيف نجح اللص في إنقاذ جثمان أخيه؟

ج: سَيَّر بعض الحمير المحملة بأوعية من الخمر أمـام الحراس. ثم عرض على الحراس الخمر المتبقى، بعد أن ثملوا، هرب هو بجثة أخيه.

س: كيف هرب اللص الماهر عندما صاحت الأميرة بالحراس؟

ج: كان قد ذهب من قبل إلى المقابر وقطع ذراعًا من جثة. وعندما كان يتحدث مع الأميـرة، وضع الذراع الميت بشكل يوحى بأنه ذراعه. وعندمـا حـاولت الإمسـاك به، وجدت نفسها ممسكة فقط بالطرف المقطوع.

س: لماذا قرر رامبسينيتس أن يجعل اللص مستشاره الملكى بعد كل محـاولاته سرقته ؟

ج: أظهر الفرعون حكمته بوضع اللص فى هذا المنصب. الآن سيكون أذكى رجل فى مصر مستشاره الشخصى، وهذا يعنى أن الملك سوف يجد أفضل نصيحة ممكنة.

تعليق الخبراء

فى القصة، كان أمر الملك بتعليق جثة اللص مقطوعة الرأس على سور القصر شيئًا قاسيًا على غير عادة المعايير المصرية. ولم يكن مدهشًا أن يخاطر الأخ الحى كثيرًا لإنقاذ جثة أخيه. فالمصريون لديهم قدر كبير من الاحترام والوضع الدينى للأموات، ذلك لدرجة أنه حتى جثة مجرم معدم من الطبيعى أن ترجع إلى أهله لتحنيطه ودفنه بطريقة ملائمة. وبدون هذه الطقوس، كانوا يعتقدون أن الميت لن يستطيع الوصول للحياة الأخرى. تقول الباحثة فيرونيكا أيونس Veronica Ions : "كل الرجال، ليس الملك وحده، يتمنون أن يستمتعوا بالحياة الأبدية. وإن الأمل الأكبر لمن يبقى فى الحياة الأخرى أن يتطابق تمامًا مع الفطرة (قصة موت وبعث أوزيريس) وأن يطابق الشكل الدقيق لتحنيطه[٢]". وبالتالى، كان أمر رامسينيتس بتجاهل الدفن الصحيح وحشيا لدرجة عالية وأن اللص الحى لن يفعل شيئًا قبل أن يتأكد من وصول أخيه للحياة الأخرى.

يقدم هيرودوت فى روايته لقصة رامبسينيتس واللص الذكى، قدراً غير عادى من التفاصيل عن حادثة محددة، بالتحديد الحادثة التى يخدع فيها اللص الحراس ويجعلهم ثملين. (ربما شعر المؤرخون أو الكهنة المصريون الذين رووا القصة أن هذا المشهد أكثر الأمثلة دلالة على براعة اللص). هذا جزء من المشهد المقصود برواية هيرودوت نفسه:

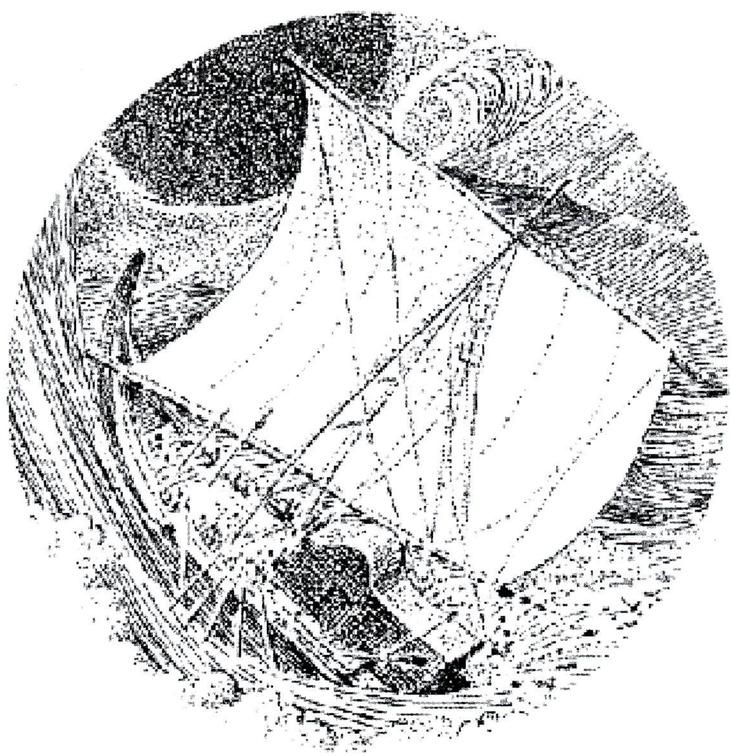
"ملأ اللص بعض الأوعية المصنوعة من جلد الماعز بالخمر وحملها على حمير ساقها إلى المكان الذى يجلس فيه الجنود لحراسة جثة أخيه. عندما وصل هناك، جذب رقاب اثنين أو ثلاثة من الأوعية حتى فك رباطها. تدفق الخمر خارج الأوعية، فصاح بشدة وضرب رأسه، كما لو كان لا يعرف بأى الحمير

يبدأ، بينما حمل الحراس أوعيتهم وأسرعوا ليحصلوا على الخمر الذى رأوه يسيل على طول الطريق، مهنئين أنفسهم على هذا الحظ الجيد. سبّهم الولد فى ثورة مفتعلة، حتى بذل الجنود قصار جهدهم ليهدؤوا من روعه، إلى أن غيّر من نبرة صوته لكى يبدو مسيطرًا على انفعاله، ساق الحمير بعيدًا عن قارعة الطريق وبدأ يعيد ترتيب أوعية الخمر على ظهورها. وبينما كان يحادث الجنود، أطلق أحدهم مزحة عنه وجعله يضحك، مما جعله يعطيهم هدية عبارة عن وعاء من الخمر، وبلا ضجة، جلسوا جميعًا ليستمتعوا بوقتهم، وألحوا على الفتى أن يجلس معهم ويشاركهم الشراب[٤].

(٨)

الملاح الغريق

[قصة نجاح الملاح]



مقدمة

تغيرت طبيعة الأدب المصرى الذى نشأ منه معظم أساطير مصر القديمة بشكل ملحوظ بمرور الزمن. فقد تكونت كتابات الفترة التاريخية التى يسميها العلماء المعاصرون بالدولة القديمة (من ٢٦٩٠ إلى ٢١٨٠ ق. م.) فى الغالب من نصوص جنائزية رسمية تميل للجدية، مثل نصوص الأهرامات. وكانت تتعامل تلك النصوص مبدئيا مع الآلهة والفراعين شبه المقدسين، وكان الغرض منها مساعدة الحكام فى الوصول إلى الحياة الآخرة.

على العكس، سيطرت القصص الخيالية على أدب الدولة الوسطى (٢٠٥٥ - ١٦٥٠ ق. م.) وكان الغرض الأساسى منها هو التسلية. كانت هذه الأساطير تتعامل لدرجة كبيرة مع الناس العاديين، بالإضافة إلى الطبقة الحاكمة، وكانت تحوى دلالات من المواقف والمشكلات الواقعية. على سبيل المثال، تصور قصة "الفلاح الفصيح" شخصًا فقيرًا يطلب الدعم المالى من السلطات لضرر ألمَّ به بعد أن هاجمه رجل غنى. وقصة "سنوحى" التى تتتبع حياة موظف فى البلاط المصرى يهرب إلى سوريا بعد أن دخل فى مشكلة ولكنه يفتقد موطنه الأصلى ثم تعود له البهجة عندما يسمح له بالرجوع وقد كبر سنه.

كثير من هذه القصص الخيالية كانت تحوى عناصر من المواقف الخيالية والمغامرات الشائقة، على غرار الأوديسا، الملحمة اليونانية المعروفة التى كتبها هومر. وهذا هو الحال تمامًا فى قصة "الملاح الغريق [قصة نجاة الملاح]" المروية هنا. وكانت تسمى أيضًا " الجزيرة الساحرة". وقد دُونت على ورق بردى يعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو موجود فى المجموعة المصرية بمتحف موسكو[1].

تتركب الأسطورة من قصة داخل قصة داخل قصة، وأحيانًا ما تسمى قصة تصوير سينمائى. بينما يحكى الر[illegible] القصة، يبدأ أحد الشخصيات فى رواية قصته،

وفى سياق هذه الرواية، يروى شخصية أخرى حكايته. (وكان من أشهر حكايات المغامرات فيما بعد أوديسا هومر وألف ليلة وليلة).

يتمثل مكان القصة على جزيرة خيالية فى مكان ما فى البحر الأحمر، وهو الطريق المائى الطويل الذى يحُدّ مصر من الشرق. هناك بعض الإشارات إلى النوبة، إقليم أفريقى يقع جنوب مصر. أما الشخصيتان الرئيسيتان فهما مبعوث - موظف أُرسل من الدولة فى مهمة - وأحد مساعديه.

الملاح التائه

التاجر الحزين :

حينما انخفضت شمس الصيف الحارة، وقف مبعوث مصرى عند درابزين سفينته. كانت السفينة تبحر شمالاً فى نهر النيل متجهة إلى العاصمة المصرية طيبة فى رحلة عودتها من النوبة. كان أحد مساعدى المبعوث واقفًا على مقربة يصلح ثوبًا عندما لاحظ فجأة أن رئيسه يبدو حزينًا ومحبطًا. فاقترب منه المساعد وقال له: " لماذا كل هذا الحزن، سيدى؟ تبدو كأنك فقدت كل أصدقائك وكل أموالك أيضًا".

فقال المبعوث: " كأنه كذلك. كما تعلم جيداً أنه بسبب شهرتى ونجاحى فى التجارة، أرسلنى الفرعون إلى النوبة لأرجع له محملاً بالذهب من المناجم الغنية فى هذه الأرض. ولكن كل المناجم كانت خاوية. ماذا سأقول له عندما أصل إلى طيبة بالسفينة فارغة؟ سوف تضيع شهرتى. وسيجعلنى أنظف الأرض فى بيت الموتى، هذا المكان البغيض كريه الرائحة الذى يحنطون فيه الأجسام الميتة. أنا أعرف ذلك جيداً".

فقال المساعد مبتسمًا: " ياه! هيا يا سيدى، لا تيأس، وبالتأكيد سيتفهم الفرعون أنه ليس خطأك وأن المناجم قد استنفذت. ثم إنه ليس هناك منجم لا ينفد ذهبه. ولا يستطيع الملك أن يطلب منك استخراج دم من حجر، هل يمكن ذلك؟" فهز المبعوث رأسه وتنهد بحرقة، وقال: " أنا أقدّر ما تفعل. ولكن لا فائدة من ذلك. محاولتك إدخال السرور علىّ مثل إعطائك الماء لأوزة سوف تذبحها وتأكلها بعد ساعة".

فاستدرك المساعد مصراً على عدم اليأس: " آه! ولكن المواقف التى تبدو يائسة فى البداية عادة ما تنتهى أفضل كثيراً مما كنت تتوقع. خذ على سبيل المثال أول بعثة خرجتُ فيها فى حياتى".

غرق السفينة :

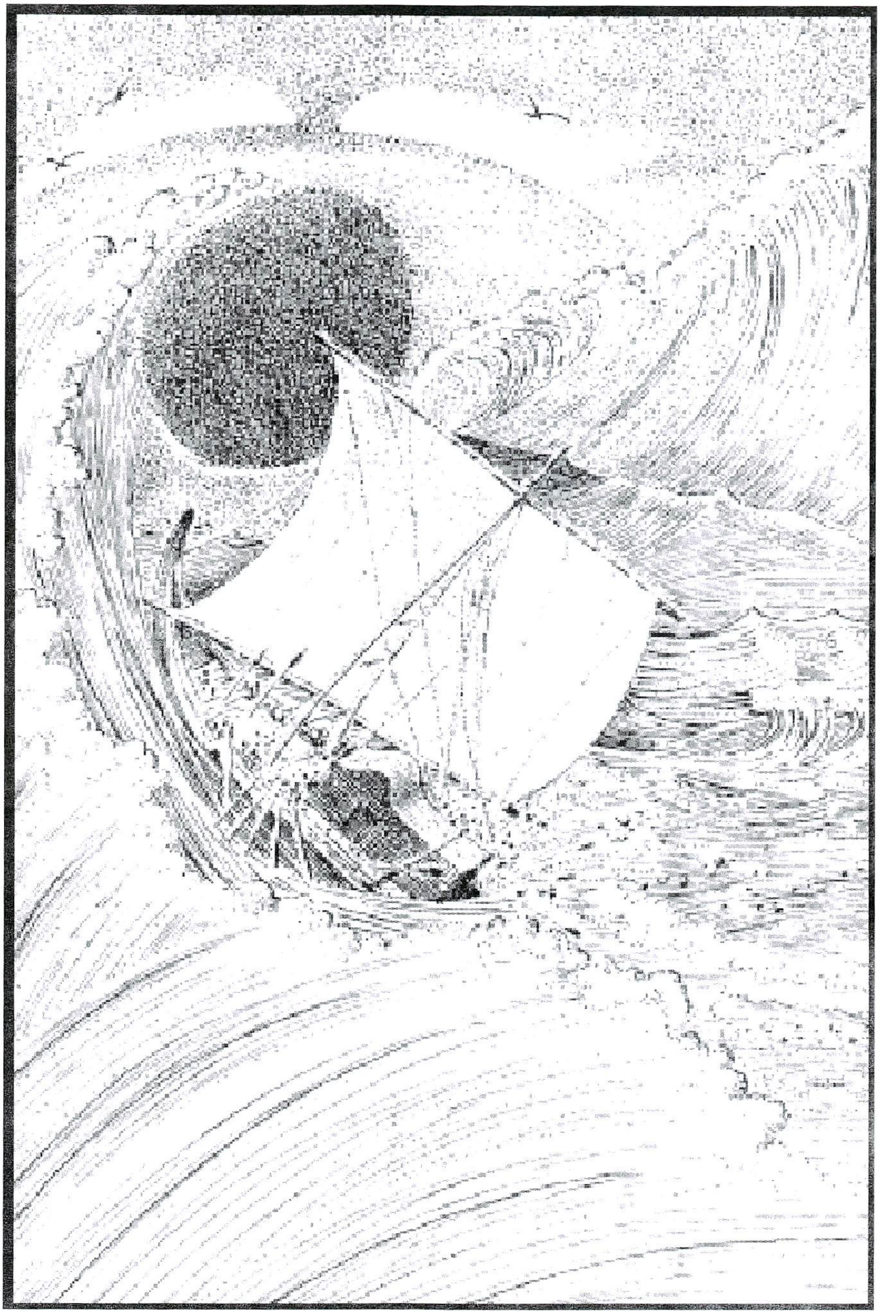
بدأ المساعد يحكي لرئيسه قصة مثيرة. وبمجرد أن تجلت القصة، حتى انهمك المبعوث فيها بشكل كبير ويبدو أنه نسى كل متاعبه الشخصية. " كنت مجرد بحار بسيط قليل الخبرة فى تلك الأيام" هكذا بدأ المساعد. " ومثل هذه المرة، كانت البعثة متجهة نحو مناجم النوبة، فقط كانت السفينة أكبر لأننا اتخذنا طريق البحر الأحمر بدلاً من نهر النيل. كانت السفينة جميلة، أكثر من مائة وثمانين قدمًا فى الطول وعرضها مائة قدم على الأقل، أقسم لك، كما يبلغ طاقمها مائة وعشرين بحارًا. كنت قد عرفت بعضًا منهم جيداً، دعنى أقول لك، إنك لم تر قط أشجع ولا أكثر منهم حماسة، ومع ذلك، أراد القدر أن تُسلب حياتهم بسرعة. كنا نبحر فى وسط طريقنا إلى الساحل بكل سهولة ونعومة كما الحرير تحت السماء الصافية. وفجأة هبت عاصفة لا ندرى من أين أتت، أو هكذا كانت تبدو. انطلق الطاقم الشجعان بسرعة هنا وهناك، محاولين الانتشار للمحافظة على توازن السفينة. ولكن الرياح كانت حينئذ قوية لدرجة لا تُحتَمل. وقبل أن نُدرك ذلك كنا خارج السيطرة. ثم ارتفعت موجة عاتية عاليًا محطمة السفينة، أو قل قتلت السفينة بمعنى الكلمة، لأن كل من كان على السفينة مات (باستثنائى بالطبع، وإلا لما كنت أستطيع الوقوف أمامك أروى لك القصة لو كنت مت أيضًا، أليس كذلك؟).

لحسن الحظ، استطعت أن أتعلق بخشبة من حطام السفينة، وانجرفت مع الأمواج طوال يوم وليلة. وفى النهاية، رأيت جزيرة على مرمى البصر، فسبحت تجاهها، ونجحت فى سحب نفسى إلى الشاطئ. وكنت منهكًا فلم أفعل أى شىء غير أن أرتاح أولاً. ولكن فى اليوم الثالث، حثتنى معدتى الخاوية أن أبحث عن طعام. حسنًا، دعنى أقول لك لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أن المكان كان عبارة عن جنة غناء، ففيها العنب والتين والفواكه من كل نوع، بالإضافة إلى الكثير من الطيور البرية والأسماك ومتع لذيذة أخرى. وأعترف أننى أكلت بنهم. هل تستطيع أن تلومنى؟ بعد ذلك أوقدت نارًا لأقدم قربانًا للآلهة شكرًا على حظى الجيد".

الساكن الآخر بالجزيرة :

استطرد المساعد: " وبأسرع ما يمكن أن أقول، لا بد أن الدخان المنبعث من النار أفصح عن وجودى لساكن الجزيرة الآخر".

" هل تقصد أن تقول إنه كان هناك بحار آخر تحطمت سفينته موجود على هذه الجزيرة؟" كان هذا سؤال المبعوث، الذى سُحر برواية مساعده.



" لم يكن بحاراً، آسف. فى الحقيقة لم يكن حتى من بنى آدم. فجأة اهتز صف من الأشجار ثم افترق بشكل واسع، ومن الفرق خرج ثعبان هائل زاحفًا. كان يبلغ طوله على الأقل خمسين قدمًا كما يبلغ سُمكه أربعة أقدام. أقسم لك. ولكن لم يكن حجمه هو الذى جعله أفعى غريبة. فقد كان لديه قشور ذهبية اللون بطول جسمه. كما نمت لحية طويلة من ذقنه، والأغرب من ذلك كله أنه كان يستطيع التكلم! سألنى هذا المخلوق: (من أنت؟ وماذا تفعل فى جزيرتى؟ إن لم تجبنى حالاً، سأنفث تياراً من اللهب عليك وأحولك إلى كومة من الرماد الخامد).

لست محتاجًا أن أقول لك إننى لم أستطع الكلام من شدة خوفى. وأعترف لك محرجًا أننى أُلقيت مغشًا علىّ فى الحال. عندما استيقظت، وجدت نفسى فى بيت الثعبان، وهو كهف كبير مزود بالأثاث والزينة وتصميمه مريح بشكل مدهش. قال لى الثعبان إنه أشفق علىّ فحملنى برفق بين فكيه إلى هذا المكان. وقد وعدنى ألا يقتلنى وأعلن فى الحقيقة أنه مرتاح لصحبتى لأنه لم يعد يحتمل الوحدة. وقال لى إنها لم تكن الصدفة البحتة التى أتت بى للجزيرة، بل كان نوعًا من القوى الإلهية. قال إنها كانت جزيرة ساحرة، حيث كانت الفواكه والخضروات ووسائل المرح موجودة بوفرة فى كل الأوقات وكان الطقس دائمًا مبهجًا.

فقلت للثعبان إننى ممتن لقراره العفو عنى وإننى مرتاح لأنى وجدت مثل هذا المكان المبهج الذى أُلقيت إليه. ولكننى كنت ملقى على جزيرة، وفكرة بقائى بعيداً عن وطنى كانت تملؤنى حزنًا. وهنا ابتسم الثعبان وقال لى ألا أيأس. وقال: " إن الأشياء التى تبدو يائسة فى البداية عادة ما تنتهى أفضل كثيراً مما كنت تتوقع".

نهاية سعيدة :

استطرد الثعبان: " إليك قصتى على سبيل المثال، كان يوجد فى الأصل خمسة وسبعين ثعبانًا مثلى على الجزيرة، وكانوا أقاربى وأصدقائى المقربين. وبصراحة كنا

نلعب ونستمتع بالطقس الجيد والمصادر الغير محدودة من الأطعمة. صدقنى، إنك لم تجد أكثر حماسة وسعادة مما كنا عليه. ولكن هاجمتنا كارثة مفاجأة. سقط نجم من السماء مندفعًا بعنف واشتعل مكونًا كرة نارية ضخمة أحرقت كل رفاقى الأعزاء. كنت الوحيد الذى نجا. ولا أحتاج أن أقول لك إننى تدمرت وأوشكت أن أنهى حياتى. مع ذلك، وبمرور الوقت أدركت أننى لا أزال بصحتى ولست مضطرًا للقلق حول معيشتى ولا طعامى، لأن الجزيرة الساحرة كان تعطينى كل ما أحتاج. لذلك نجحت فى تجاوز حزنى. وبنفس الطريقة، سوف تتغلب على أفكارك، وسوف يتم إنقاذك فى خلال شهور قليلة".

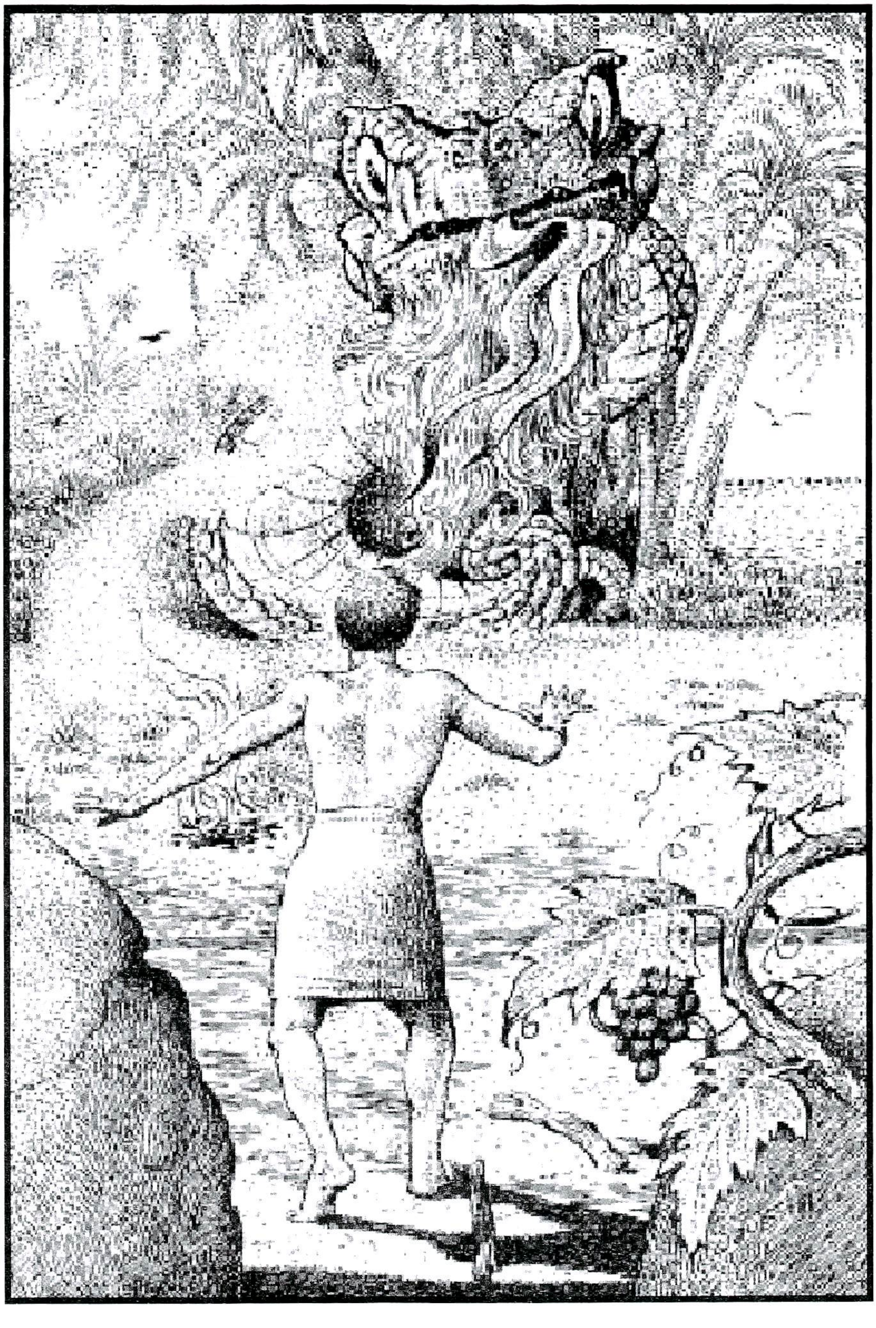
قال المساعد: " لا أعرف كيف تمكن الثعبان من التنبؤ بالمستقبل، ولكن نبوءته تحققت بالفعل. وبعد أربعة شهور تقريبًا، ظهرت سفينة بالقرب من الجزيرة. وكان على متنها بعض أصدقاء من بلدتى كانوا يبحثون عنى فى كل مكان. ناشدت الثعبان الذى أصبح رفيقى المقرب والموثوق فيه أن يأتى معى إلى الحضر. فقال إنه لا يهتم أن يعرف أية حضارة غير الجزيرة. وقد خُلق ليكون على هذه الجزيرة، ولذلك لا بد أن يبقى، على الرغم من أنه استطاع استشراف المستقبل حيث قال لى إن الجزيرة سوف تغرق فى يوم من الأيام بين الأمواج وتختفى إلى الأبد. وقد أعطانى الثعبان هدية وداع عبارة عن حمولة ثمينة من التوابل والزيوت النادرة والعطور وذيول الزراف والقرود وأشياء أخرى قيمة غريبة. ودّعته بمسحة من الحزن وغادرت على متن السفينة.

عندما وصلت إلى مصر، ذهبت إلى القصر وطلبت رؤية الملك. رويت عليه قصتى العجيبة، وقدّمت له الهدايا التى أعطانى الثعبان إياها. وقد كان مقتنعًا لدرجة أنه جعلنى موظفًا بالقصر. أترى؟ كان حظى السيئ فى تحطم سفينتى سببًا أوصلنى إلى نهاية سعيدة لم أكن أتوقعها".

فوضع المبعوث يده على كتف المساعد وابتسم بوضوح. " كانت هذه أحدى أفضل القصص التى سمعتها فى حياتى يا رجلى الطيب. لا بد أن أعترف أنها كانت مسلية

بشكل كبير. لقد نجحت حقا أن تبعد عقلى عن مشاكلى لفترة، وأنا ممتن لذلك. ولكن للأسف لا يوجد لدى أية حمولة من الأشياء القيمة لأقدمها للملك. كما قلت إنك فعلت".

ثم استدار المبعوث واستند إلى الدرابزين، وغرق مرة ثانية فى مزاجه الكئيب، لأنه عرف أنه عما قريب سيقابل الملك صفر اليدين. لا يعرف أحد بما حدث للمبعوث بعدما وصلت السفينة إلى طيبة. ولكن كل من سمع هذه القصة تمنى لو تفهّم حاكم مصر الأمر ولم يعاقب المبعوث على إخفاقه فى العودة بالسفينة محملة بالذهب.



أسئلة وأجوبة

س: كيف استطاع بناء قصة الملاح الغريق أن يوصل إلى الفكرة الرئيسية؟

ج: قيلت الأسطورة فى شكل معقد من القصص المتداخلة، أو " قصة داخل قصة داخل قصة". يخبرنا راوى القصة عن المبعوث ومساعده على السفينة. داخل هذه القصة، يحكى المساعد للمبعوث قصة تحطم سفينة وجزيرة ساحرة، وداخل هذه القصة، يحكى الثعبان للمساعد البحار قصته وكيف نجا من الموت من بين كل رفاقه الثعابين. فى كل حالة، يحاول راوى القصة أن يجعل المستمع يتفاءل، لأنه يمكن أن يحدث للناس أشياء جيدة حين لا يتوقعون إلا الأسوأ. وقد تعمقت هذه الرسالة من خلال التكرار المتواصل.

س: مم كان يقلق المبعوث؟

ج: أرسله الفرعون إلى النوبة ليرجع إليه بحمولة من الذهب من المناجم هناك. ولكن المناجم كانت خاوية، ولم يتمكن المبعوث من تحقيق مطلب الملك. كان خائفًا أن يطرده الملك إلى بيت الأموات، الذى يؤخذ الأموات إليه للتحنيط.

س: بعد أن تتحطم سفينة المساعد ويُلقى على الجزيرة، يكتشف وجود ساكن آخر بالمكان، ثعبان ضخم يستطيع التحدث، كيف أتى الثعبان إلى الجزيرة؟

ج: كان يعيش على الجزيرة مع أكثر من سبعين من فصيلته.

س: ماذا حدث لباقى الثعابين؟

ج: نجم ساقط تحول إلى انفجار ضخم من النيران قتل كل الباقين.

س: عندما تظهر سفينة منقذة أخيراً، لماذا يرفض الثعبان مغادرة الجزيرة مع البحار الذى تحطمت سفينته؟

ج: يشعر الثعبان أنه خُلق ليعيش على الجزيرة، وليس لديه الرغبة فى السفر لمكان غريب يسكنه مخلوق غريب.

س: لماذا فشلت قصة المساعد فى إدخال السرور الحقيقى على المبعوث؟

ج: على الرغم من أن القصة كانت مسلية له، وأخذت بتفكيره للحظات بعيداً عن مشاكله؛ فإن المبعوث لم يستطع أن ينسى أنه عما قريب سيلقى الفرعون صفر اليدين. ولا مجال لمعرفة إذا كان الفرعون سيتفهم حالته ويسامحه على الرجوع بالسفينة خاوية.

تعليق الخبراء

إن الشخصيات والحبكة فى قصة الملاح التائه تعكسان الواقع المتمثل فى أثناء فترة الدولة الوسطى، حيث أصبح التجار والرحالة المصريون مشهورين جدا، يشرح لويس سبينس Lewis Spence العالم بالمعارف المصرية ويقول:

"من أهم الفقرات فى الأدب المصرى ما يتعلق بالترحال والمغامرات. ويُعتبر سكان مصر الأصليون رحالة بطبيعتهم. فى الغالب كانوا يحبسون رحلاتهم واستكشافاتهم داخل نطاق بلدهم وحتى داخل نطاق أقاليمهم. ولكن كان من الضرورى إرسال السفراء إلى الدول المحيطة، ولا بد أن تُفرض الضرائب المتفق عليها. وبعد أن تجلت فوائد التجارة، سلك التجار المصريون طريقهم إلى المناطق المحيطة، وكان المجرمون يؤمّنون أنفسهم بالسفر إلى الدول الأجنبية. ومن أقام بالخارج لفترة اعتادوا على الرجوع لبلادهم ليجمعوا أصدقاءهم وجيرانهم حولهم ويستمتعوا معهم بحكايا أسفارهم.[٢]".

فى البردية الأصلية المكتوب عليها الأسطورة، قال الثعبان للبحار إن سفينته تحطمت على "جزيرة كا". يقول جورج هارت George Hart الأستاذ بجامعة لندن: "هذه العبارة صعبة الترجمة":

"تعتبر كلمة "كا" القوة الحياتية للشخص وتولد معه فى نفس الوقت ولكنها تنجو من الموت البدنى فى شكل كيان روحى. اقترح أحد علماء المصريات أنه يحتمل أن تكون "جزيرة الشبح" ترجمة ممكنة. ومع ذلك، إذا كانت الـ "كا" قوة سحرية قادرة على تحويل التصورات الغير حقيقية إلى واقع، مثلاً الخبز وأباريق الجعة والبخور والملابس الكتانية والحيوانات، إذن فقصد الثعبان هو " الجزيرة المسحورة[٣]".

المصطلحات

أخت : موسم الفيضان فى مصر، يستمر من يونيو إلى سبتمبر.

تميمة : شىء يوضع حول الرقبة تعويذة ضد الشر.

آتف : تاج أبيض فى شكل قنينة البولينج مثبت على جانبيه ريش كان يرتديه ملك مصر.

با : فى مصر القديمة، هى الجزء الذى يمثل السمات الشخصية فى الروح.

الطوفان : كارثة أو نكبة.

نظرية نشأة الكون : قصة توضح أصل الكون ونظامه ومحتوياته.

الكونيات (الكسمولوجيا) : دراسة طبيعة وتركيب الكون أو النظام الكونى.

الصولجان والمذبة : الشارة الرئيسية للطبقة الحاكمة فى مصر، وعادة ما يمسك بها الفرعون فى أثناء جلوسه على العرش. الصولجان عبارة عن عصا ملكية تشبه الخطاف. أما المذبة عبارة عن عصا لها شرائح من القماش مربوطة من أحد أطرافها.

سلالة حاكمة : سلسلة من الحكام ينتمون لعائلة واحدة.

نقوش : كلمات أو رسومات أو كلاهما منحوتة على الحجر.

كا : فى مصر القديمة، هى الجزء الذى يمثل قوى الحياة للشخص فى روحه.

موحد : يؤمن بإله واحد.

التحنيط : عملية حفظ جسم الإنسان بعد موته.

الناترون : أملاح معدنية تستخدم لتجفيف الأجسام فى أثناء التحنيط.

نومى : مصطلح يونانى بمعنى مقاطعة محلية فى مصر القديمة.

البـردى : نوع قـديم من الورق يصنـع من نبـات البـردى، وكـان ينمـو بقـوة فى أحراش الدلتا.

برت : موسم الزراعة فى مصر، يستمر من أكتوبر إلى فبراير.

الفرعون: الملك فى مصر القديمة.

مشرك : يؤمن بأكثر من إله.

هرم : مقبرة تبنى من القرميد أو الحجر، تدفن فيها الجثث الملكية.

الصولجان : أداة أو عصا يمسك بها الحاكم رمزًا للسلطة.

الشيمو : موسم الحصاد المصرى، ويستمر من فبراير حتى يونيو.

الكفن : ثوب أو قماش للدفن يلف حول جثمان الميت.

لوحة حجرية : حجر منقوش يستخدم علامة مميزة أو أثر من الآثار.

جزية : شىء يُدفع، فى شكل أموال أو أشياء أخرى قيمة، للاعتراف بالولاء لأمة أو زعيم أقوى.

الصل الملكى: الصورة الملكية للكوبرا فى مصر، وهى ثعبان سام عادة ما يظهر فى الرسومات والتماثيل والأشكال الفنية الأخرى.

هوامش الفصول

Preface

1. H. W. F. Saggs, Civilization Before Greece and Rome (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1989), p. 24.
2. Charles Freeman, Egypt, Greece, and Rome (New York: Oxford University Press, 1996), pp. 33-38.
3. Lionel Casson, Daily Life in Ancient Egypt (New York: American Heritage, 1975), p. 11.
4. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), pp. 9-28.
5. Nicolas Grimal, A History of Egypt (Cambridge, Mass.: Blackwell, 1992), p. 105.
6. Casson, p. 66.
7. Herodotus, Histories, trans. Aubrey de Sélincourt (New York: Penguin Books, 1972), pp.160-161.

Chapter 1. The Creation of the Gods and Humans

1. Eugene Cruz-Uribe, from personal correspondence of August 18, 1999.
2. Leonard H. Lesko, "Ancient Egyptian Cosmogonies and Cosmology," in Byron E. Shafer, ed., Religion in Ancient Egypt: Gods, Myths, and Personal Practice (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991), pp. 90-91.

3. Byron E. Shafer, "Introduction" to Shafer, ed., Religion in Ancient Egypt: Gods, Myths, and Personal Practice (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991), pp. 98-101.

4. Ibid., p. 3.

5. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), pp. 26-27.

Chapter 2. The Murder of Osiris

1. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), pp. 29-33, 39-41, 52-54.

2. Leonard H. Lesko, "Ancient Egyptian Cosmogonies and Cosmology," in Byron E. Shafer, ed., Religion in Ancient Egypt: Gods, Myths, and Personal Practice (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991), p. 93.

3. Philippe Derchain, "Death in Egyptian Religion," in Yves Bonnefoy, ed., Greek and Egyptian Mythologies (Chicago: University of Chicago Press, 1992), p. 236.

4. Paul Johnson, The Civilization of Ancient Egypt (New York: HarperCollins, 1999), pp.127-129.

Chapter 3. Isis and the Seven Scorpions

1. Richard Patrick, All Color Book of Egyptian Mythology (London: Octopus Books, 1972), p. 33.

2. Lionel Casson, Daily Life in Ancient Egypt (New York: American Heritage, 1975), pp. 60-65.

3. H. W. F. Saggs, Civilization Before Greece and Rome (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1989), pp. 240-266.

4. Donald Mackenzie, Egyptian Myths and Legends (New York: Gramercy Books, 1994), p. xxxvi.

5. Apuleius, The Golden Ass, trans. P.G. Walsh (New York Oxford University Press, 1995), pp. 220-221.

6. Lionel Casson, Ancient Egypt (New York: Time-Life, 1965), p. 163.

Chapter 4. The Revenge of Horus

1. Lewis Spence, Ancient Egyptian Myths and Legends (New York: Dover Publications, 1990), p. 96.

2. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), pp. 29, 37-39.

3. Ibid., p. 34.

4. Ian Shaw and Paul Nicholson, The Dictionary of Ancient Egypt (New York: Harry N. Abrams, 1995), pp. 133-134.

Chapter 5. The Near Destruction of Humanity

1. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), p. 47.

2. Lewis Spence, Ancient Egyptian Myths and Legends (New York: Dover Publications, 1990), pp. 162-163.

3. Veronica Ions, Egyptian Mythology (New York: Peter Bedrick Books, 1982), p. 85.

Chapter 6. The Princess and the Demon

1. Charles Freeman, Egypt, Greece, and Rome (New York: Oxford University Press, 1996), pp. 272-273, 278.

2. Nicolas Grimal, A History of Egypt (Cambridge, Mass.: Blackwell, 1992), pp. 258-259.

3. E.A. Wallace Budge, The Gods of the Egyptians vol. 2 (New York: Dover Publications, 1969), p. 36.

4. Philippe Derchain, "The Divine and the Gods in Ancient Egypt," in Yves Bonnefoy, ed., Greek and Egyptian Mythologies (Chicago: University of Chicago Press, 1992), p. 228.

5. Budge, p. 37.

Chapter 7. The Cleverest Egyptian of Them All

1. Michael Grant, Greek and Roman Historians: Information and Misinformation (New York: Routledge, 1995), pp. 5-7.

2. Nicolas Grimal, A History of Egypt (Cambridge, Mass.: Blackwell, 1992), pp. 270-276.

3. Veronica Ions, Egyptian Mythology (New York: Peter Bedrick Books, 1982) , p.130.

4. Herodotus, Histories, trans. Aubrey de Sélincourt (New York: Penguin Books, 1972), p. 176.

Chapter 8. The Shipwrecked Sailor

1. George Hart, Egyptian Myths (Austin: University of Texas Press, 1990), pp. 72-74.

2. Lewis Spence, Ancient Egyptian Myths and Legends (New York: Dover Publications, 1990), p. 190.

3. Hart, p. 73.

لمزيد من الاطلاع

Allen, J.R. Genesis in Egypt: The Philosophy of Ancient Egyptian Creation Accounts. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1988.

Apuleius. The Golden Ass. Trans. P. G. Walsh. New York: Oxford University Press, 1995.

Bonnefoy, Yves, ed. Greek and Egyptian Mythologies. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

Brewer, Douglas J., and Emily Teeter. Egypt and the Egyptians. New York: Cambridge University Press, 1999.

Budge, E. A. Wallace. The Gods of the Egyptians. 2 vols. New York: Dover Publications, 1969.

Casson, Lionel. Daily Life in Ancient Egypt. New York: American Heritage, 1975.

Cerny, Jaroslav. Ancient Egyptian Religion. Westport, Conn.: Greenwood Press, 1979.

Faulkner, R. O. The Ancient Egyptian Book of the Dead. Rev. and ed., Carol Andrews. New York: Macmillan, 1985.

___. The Ancient Egyptian Coffin Texts. 3 vols. Warminster, England: Aris and Phillips, 1973-1978.

___. The Ancient Egyptian Pyramid Texts. Oxford, England: Clarendon Press, 1969.

Goodrich, Norma L. Ancient Myths. New York: New American Library, 1960.

Griffiths, John G. The Conflict of Horus and Seth. Liverpool, England: Liverpool University Press, 1960.

Grimal, Nicolas. A History of Egypt. Cambridge, Mass.: Blackwell, 1992.

Harris, Geraldine. Gods and Pharaohs from Egyptian Mythology. New York: Peter Bedrick Books, 1981.

Hart, George. Egyptian Myths. Austin: University of Texas Press, 1990.

Herodotus, Histories. Trans., Aubrey de Sélincourt. New York: Penguin Books, 1972.

Hornung, Erik. Conceptions of God in Ancient Egypt, The One and the Many. Trans., John Baines. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1982.

Ions, Veronica. Egyptian Mythology. New York: Peter Bedrick Books, 1982.

James, T. G.H. Ancient Egypt, The Land and Its Legacy. Austin: University of Texas Press, 1988.

Lichtheim, Miriam. Ancient Egyptian Literature. 3 vols. Berkeley: University of California Press, 1973-1980.

Mackenzie, Donald. Egyptian Myths and Legends. New York: Gramercy Books, 1994.

Meeks, Dimitri and Christine Favard-Meeks, Daily Life of the Egyptian Gods. Trans., G. M. Goshgarian. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1993.

Millard, Anne. Mysteries of the Pyramids. Brookfield, Conn.: Millbrook Press, 1995.

Nardo, Don. Cleopatra. San Diego, Calif.: Lucent Books, 1994.

Patrick, Richard. All Color Book of Egyptian Mythology. London: Octopus Books, 1972.

Plutarch. Isis and Osiris, in Moralia. 14 vols. Trans., F. C. Babbitt. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1936.

Redford, Donald B. Akhenaten: The Heretic King. Princeton, N. J.: Princeton University Press, 1984.

Reeves, Nicholas. Into the Mummy's Tomb. New York: Scholastic/Madison Press, 1992.

Shafer, Byron E., ed. Religion in Ancient Egypt: Gods, Myths, and Personal Practice. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1991.

Shaw, Ian, and Paul Nicholson. The Dictionary of Ancient Egypt. New York: Harry N. Abrams, 1995.

Spence, Lewis. Ancient Egyptian Myths and Legends. New York: Dover Publications, 1990.

عناوين على الإنترنت

Akhet Egyptology

<http://www.akhet.co.uk/index.htm>

The Ancient Egyptian Site

<http://www.geocities.com/~amenhotep>

Egyptian Mythology

<http://touregypt.net/gods1.htm>

The Encyclopedia Mythica

<http://www.pantheon.org>

Life in Ancient Egypt

<http://www.einpgh.org/cmnh/exhibits/egypt>

The Magic and Mysteries of Ancient Egypt

<http://www.verdenet.com/isis>

المؤلف فى سطور:

دون ناردو

ولد دون ناردو فى عائلة موسيقية ، حيث كان والداه يعملان فى النوادى الليلية وتجولا فى الولايات المتحدة كلها. كما عملا مع تونى بينيبت وبيرل بيلى ، وعظماء الموسيقيين الآخرين. أحب الموسيقى وتعايش معها إلى أن ألف سيمفونيته الأولى فى سن الرابعة عشرة. فى السنوات التى تلت ذلك ، أنتج أكثر من سبعين عملا لكثير من الفرق الأوكترالية المختلفة ، والعديد من الأعمال الكورالية (بما فى ذلك تكريما وطنيا لتوماس جيفرسون). ومؤخراً كرس وقتا طويلا لتجهيز أعمال أخرى لعازف الكمان العالمى بيتر فيريرا وأوركسترا أماديس .

وقد نجح أيضًا ممثلا شابا حيث عمل فى شركة شكسبير الوطنية ومجموعة أخرى. وفى النهاية ، أدى ذلك إلى كتابته العديد من المسرحيات والسيناريوهات أحد هذه السيناريوهات فاز بجائزة ٥٠٠٠ دولار من مؤسسة ماساشوستش الفنية . كما كتب أحد حلقات مسلسل سبنسر على ABC.

بالإضافة إلى ذلك، وجد دون لنفسه فرصة فى أن يمارس ما كان يحبه منذ طفولته وهو التاريخ . وقد بدأ كتابة كتب تاريخية للصغار فى الثمانينيات . ومنذ ذلك الحين ، نشر نحو مائتى مجلد فى نواحى مختلفة من التاريخ القديم والوسيط والحديث ، وكان له عديد من العروض ، حتى أصبح معروفا برائد الكتابة التاريخية للشباب فى بلاده .

المترجم فى سطور:

أحمد عبد المنعم على محمد على السرساوى

- ليسانس الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة المنصورة .

الوظائف السابقة :

- مدرس لغة إنجليزية.
- محرر ومترجم بموقع الإنترنت لمدة عام .
- ثم منسق إعلامى (معد ومقدم برامج) - الجمعية الشرعية الرئيسية - القاهرة .
- محرر بالصفحة الأدبية - جريدة الرأى للشعب - القاهرة .

المشاركات الأدبية :

- شاعر - باحث أدبى .
- عضو اتحاد كتاب مصر .
- محاضر مركزى بالهيئة العامة لقصور الثقافة .

صدر له:

" دومًا تسافر للأفق" .... مجموعة شعرية – دار النسر الأدبية – ٢٠٠٢ .

" هل تهرب الشمس؟" .... مجموعة شعرية – دار النسر الأدبية – ٢٠٠٦ .

" على أجنحة النسر " .... رؤية نقدية – دار النسر الأدبية – ٢٠٠٨ .

له تحت الطبع :

"للحب حالات أخرى" .... مجموعة شعرية .

المراجع فى سطور:

علاء الدين شاهين

عميد كلية الآثار وأستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم – جامعة القاهرة .

التصحيح اللغوى: سماح حيدة
الإشــــراف الفنى: حسن كامل